

**دمشق من الفتح العربي الإسلامي حتى عهد**

**معاوية ١٤-٦٠هـ / ٦٣٦-٦٧٩م**

**الأستاذة الدكتورة شكران خربوطلي**

**قسم التاريخ**

**كلية الآداب والعلوم الإنسانية**

**جامعة دمشق**



## دمشق من الفتح العربي الإسلامي حتى عهد معاوية

١٤-٦٠هـ / ٦٣٦-٦٧٩م

الأستاذة الدكتورة شكران خربوطلي

قسم التاريخ

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة دمشق

### توطئة:

تأتي أهمية البحث من كونه يتناول حقبة مفصلية من تاريخ الدولة العربية الإسلامية في بلاد الشام عامة، ودمشق خاصة، والتي بدأت من سنة ١٤هـ / ٦٣٦م وامتدت حتى عهد معاوية ٦٠هـ / ٦٧٩م.

فمع فتح العرب لبلاد الشام أصبحت دمشق قسبة لجند من أهم الأجناد التي انقسمت إليها الشام.

أما المدن التي تبعت جند دمشق فقد كانت عرقة، وجبيل، وصيدا، وبيروت وطرابلس، وقد بقيت هذه المدن الساحلية تابعة لمن يتولى جند دمشق حتى سيطرة الفاطميين سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٨م.

هذا البحث محاولة لدراسة دمشق بأوضاعها السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والدينية، منذ الفتح العربي الإسلامي حتى عصر معاوية

وقد دفعني إلى اختياره إهمال المؤرخين لدراسة أوضاع دمشق في هذه المدة الزمنية، حيث أدى الفتح إلى تغيير شامل في النظام الكلي لشؤون الحياة، فالفتح العربي

الإسلامي جاء بقيم جديدة، وب عقلية مختلفة، وبتصور ثقافي مغايرٍ كثيراً لما كان عليه الحال أيام البيزنطيين.

وكان وراء اختيار البحث أسباب عدة من أهمها:

- أهمية دمشق بالنسبة لبلاد الشام واشتراكها في الأحداث التي وقعت في هذه الحقبة من تاريخ المنطقة كونها الحلقة الواصلة بين شمال بلاد الشام حيث البيزنطيون الذين كانوا يسيطرون على المنطقة، وبين جنوب بلاد الشام القريب من الحجاز مهد الإسلام.

- اهتمام الخلفاء والولاة في الدولة العربية الإسلامية بدمشق، فقد عدوها القاعدة الأساسية لنشر الإسلام في الشمال، ولمقارعة البيزنطيين في كل المناطق التي احتلوها.

- التعرف على الأسباب التي سهلت على الفاتحين دخول دمشق والانتصار على الدولة البيزنطية، وكيف تم ذلك، وأسباب النجاحات التي حققها الفاتحون وموقف أهل الذمة من الفتوحات، وإبراز دور التسامح الديني في كسب تأييد السكان ونشر الإسلام.

- رصد طبيعة العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وغير المسلمين، وإبراز دور المؤسسات الدينية كالمسجد، وكذلك التعليمية كالكتاتيب في دمشق في التآلف والتعايش.

- إبراز دور معاوية بن أبي سفيان وتآلفه مع قبيلة كلب، وقدرته على إضعاف خصومه، والتفريق بينهم، والتغيير الشامل الذي أحدثه في شؤون الحياة.

وقد اشتهرت دمشق بحضاراتها المتنوعة، وموقعها الاستراتيجي، فوصفها المؤرخون والرحالة بأنها جنة الله على الأرض، وقبلة الباحثين، وكما هو معروف تعد أقدم

عاصمة مأهولة حتى الآن سكنها الآراميون والفرس الأخمينيون، والإغريق ثم الرومان، والبيزنطيون.

وعبر القرون التالية برزت خصوصيتها السياسية، والاقتصادية والاجتماعية، وشهدت توسعاً ضمن الدولة العربية الإسلامية الأمر الذي استوجب أن تتجاوز حدود سور المدينة الذي يرجع إلى العصر الآرامي في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد، حيث دعت الضرورة لبنائه لصد الهجمات الآشورية المتكررة عليها<sup>١</sup>. وقد تعرض السور إلى أعمال صيانة، ونشأت ضواحي جديدة خارجه وسط البساتين المنتشرة حوله.

وللمدينة أبواب عدة أكد ابن جبير أنها ثمانية أبواب فيها منارة، وربما قصد بذلك الأبراج التي في الأبواب<sup>٢</sup>. كباب توما، وباب الفراديس، وباب جنيق، وباب كيسان، وباب الصغير، وباب السلامة، وباب الفرج، وباب النصر. وقد كان لهذه الأبواب أهمية كبيرة عند السكان لعلقتها ببعض التقاليد، والمناسبات كالأعياد مثلاً وغيرها.

ولقد صممت واجهات هذه الأبواب بشكل هندسي، وعلمي تدل على مستوى رقي العمارة، وفن البناء، كما دعم السور بخندق لأغراض تعبوية حيث كان يسهم بحماية المدينة، ويدفع مخاطر الأعداء لأنه كان مغموراً بالمياه، وهو يدور حول السور.

واعتمدت المدينة بمياهها على نهر بردى الذي ينبع من مرتفعات الزبداني في جبل لبنان الشرقي، ثم يتجه شرقاً ليسقي قسماً كبيراً من الأراضي، ويروي بساتينها، ودورها ثم يتفرع بعدها إلى فروع عدة تمر بدمشق<sup>٣</sup>.

وقد أسهم في زيادة جمالية المدينة من خلال الغوطة المشهورة والتي تشتمل على خمسة آلاف وثلاثمائة بستان وخمسمئة وخمسين كرماً<sup>٤</sup>.

وقد امتدت هذه الأراضي من جبال لبنان إلى إقليم قليل المطر، ولوقوعها على الطريق الممتد من الشمال إلى الجنوب مخترباً الأراضي الداخلية.

وتقع المدينة على حافة الصحراء العربية الشمالية، ويشغل الحاجز المزدوج، وجبال لبنان الشرقية دوره في حمايتها من ناحية الشمال، ومن أشهر هذه المرتفعات جبل حرمون، وجبل قاسيون، ومن الجنوب يحميها الجبل الأسود، وجبل المانع، ولكنها مكشوفة من الشرق، ومناخها ملائم للصحة، لذا احتلت مكانة مهمة اقتصادية، واجتماعية، وسياسية، وثقافية، وعمرانية.

والمفيد ذكره وقبل الحديث عن الفتح الإسلامي وضع بعض الملاحظات وفي مقدمتها العلاقة بين شبه الجزيرة العربية، وأهل الشام، سواء سكان البادية منهم، أو سكان المدن، وكان هناك تفاعل دائم شمل كافة النواحي، وهكذا احتفظت بلاد الشام - منذ ألف سنة ونيف - على الرغم من الحكم الأجنبي الفارسي ثم الإغريقي، والروماني، والبيزنطي - بشخصيتها العربية المتميزة ثقافياً، واجتماعياً، ودينياً، وعرفت الأرض الشامية صراعات عسكرية شبه دائمة بين قوى الإمبراطورية البيزنطية، والإمبراطورية الفارسية، وحاولت الأطراف المتنازعة زج شبه جزيرة العرب في هذه الصراعات، ولاشك أن عرب شبه الجزيرة استفادوا من التقنيات العسكرية التي عرفت في الصراعات، ولاسيما في أواخر العصر البيزنطي، أو بكلمة أوضح، خلال الصراع الساساني البيزنطي.

وكانت الإمبراطورية الساسانية قد سيطرت على اليمن، ورعت إنشاء دويلة عربية مستقلة في الحيرة، وبالمقابل رعت بيزنطة إقامة دويلة عربية في حوران هي إمارة الغساسنة، وعمل كل من الغساسنة والمناذرة على ضبط القبائل القادمة من شبه الجزيرة العربية، كما أسهمتا في الصراع الساساني البيزنطي إما بالوساطة أو بشكل مباشر، وبذلك توفرت لدى عرب شبه الجزيرة العربية مختلف أنواع الأسلحة الفردية، وأحياناً الجماعية، وتسليح عرب شبه الجزيرة يشكل رئيس بالسيوف، والحراب، وأحياناً بالرمح، كما تسلحوا بالقيس، وعرفوا الدروع والسوابغ والترسة، واستخدموا الخيول، لكن اعتمدوا على الجمال أكثر، وغالباً ما أمطوا الخيول مجردة، ويرجع

أنهم لم يعرفوا "الركابات" حتى العصر الأموي، ولعل أهم الانجازات قبيل ظهور الإسلام تمثل في استخدام القتب الخشبي (الأكاف) لدى امتطاء الجمال، وعرفوا نوعاً من (الركابات) وكانت القتب في شبه الجزيرة العربية بدون إطار خشبي، وكان واحدها يوضع خلف السنام، وهكذا كان كافياً للغايات السلمية، ولكن كان بلا فائدة حربية، وما أن امتلكت القبائل المنتجة للجمال القتب الجديدة حتى بات من الصعب السيطرة عليها من قبل الإمبراطوريتين المجاورتين، وكذلك الغساسنة والمناذرة، وفي روايات أخبار أيام العرب قيل الإسلام أحاديث عن مصادمات مع الفرس والروم والغساسنة والمناذرة، ويفيد هذا أن عرب شبه الجزيرة اطلعوا على فنون السوقية التي كانت معروفة آنذاك، وبات العرب بالفعل يستطيعون مواجهة قوات بيزنطة وفارس بكفاءة ومساواة وتفوق أحياناً، وكما ستوضح الأمور في معارك الفتوحات الكبرى.

وكان الرأي المتداول بين الباحثين هو أن أعمال فتوح بلاد الشام قد بدأت بعد فتوح العراق، وهذا صحيح ظاهرياً، لكن الواقع ينقضه، لأن العصر النبوي شهد نشاطات عسكرية واضحة ضد بلاد الشام، ولم يعرف شيئاً من هذا القبيل ضد بلاد العراق وهذا ما سنوضحه لاحقاً.

وقبل ذلك يجب التعرف على الأوضاع العامة في بلاد الشام كالأوضاع الاقتصادية والمالية، فالزراعة والتي هي المعتمد الأكبر للاقتصاد لا في دمشق وحدها بل في بلاد الشام كلها، والإمبراطورية البيزنطية بشكل عام، كان يقع على عاتقها الجزء الأكبر من الضريبة، مثل النفقات العسكرية، والخدمة المدنية، وصيانة نظام النقل، أي أن الفلاح كان يدفع على ملكية صغيرة النسبة نفسها التي يدفعها عضو مجلس الشيوخ على أملاكه الواسعة وعلى أهل الأرياف ضريبة رأس يعفى منها أهل المدن، أضف إلى ذلك تعرض مستأجرو الأرض لمضايقات من السيد وأعوانه، كالتطفيف في المكاييل والموازين وليس من المبالغة في شيء أن يقال أن الفلاحين كانوا مضطهدين يؤساء.

وكان نتيجة هذا العنت والإرهاق أن لجأ الملاك الصغار والمستأجرون، وبخاصة في بلاد الشام إلى ظل حام يحميهم من الجابي، أو من السيد المالك نفسه، وتفسير هذه الحماية أن يدفع أهل القرية رشوة لقائد الولاية لكي يضع جنداً في القرية فإذا جاء الجابي أو السيد أو وكيله لجمع الضرائب أو الأجور دافعوا عن حقوق الأهالي، وعلى الفلاحين أن يضمنوا حياة جيدة للجنود لقاء تلك الحماية<sup>٥</sup>.

والجدير بالذكر أن التوكيد على أهمية الزراعة لا يعني التقليل من الصناعة و أهمية التجارة والتي هي الحرفة الأساس، وقد ارتبطت السلع التجارية بالزراعة كالقمح والخمور وزيت الزيتون، وبما أن دمشق نقطة استراتيجية هامة لانتقاء الطرق التجارية فقد عملت الإمبراطورية الرومانية على الاهتمام بشبكة المواصلات، ولم يكن العرب بمعزل عن تلك الطرق لأنهم كانوا على اتصال كبير ببلاد الشام تجارياً وكانت معرفتهم بالطرق المؤدية إلى فلسطين ودمشق، وبعض موانئ البحر المتوسط الشامية كغزة وصور واسعة، فأكسبت هذه الصلات تجار مكة معرفة دقيقة بأحوال بلاد الشام قبل الفتح الإسلامي، ولذلك نجد أن أبا بكر حينما وجه قادة الفتح لبلاد الشام وجههم عبر الطرق المعروفة<sup>٦</sup>.

أضف لذلك أن دمشق كانت مركزاً لولاية داخلية أطلق عليها اسم فينيقية الثانية، أو فينيقية المقابلة للبنان<sup>٧</sup>.

ولعل الحروب التي قامت بين الفرس والبيزنطيين حذت من الازدهار الاقتصادي. وعندما خرجت الدولة البيزنطية منها كانت في موقف اقتصادي ضعيف وكانت البلاد تتطلب وقتاً طويلاً من السلم لاستعادة عافيتها. فخرانة الدولة أفرغت والكنيسة تلح في تقاضي دينها الذي قدمته لمساعدة هرقل في الحرب والضائقة الاقتصادية تحكم قبضتها على الناس في كل مكان، ذلك أن الدولة لجأت إلى فرض ضرائب جديدة لتدفع للكنيسة دينها، ومن أجل التوفير أرجأ هرقل الإصلاحات الإدارية، ومنع عن شيوخ القبائل أعطياتهم السنوية<sup>٨</sup>.



هذه الأوضاع جعلت أحوال الشام أكثر ملاءمة لفتوح العرب فأسباب الظفر موفورة، والسكان مستأثرون، والدين عالمي.

كان هذا في الوقت الذي كانت فيه الإمبراطورية البيزنطية ترصد الأحداث التي كانت تجري في شمال شبه جزيرة العرب بسبب الدعوة إلى الإسلام، فحاولت أحياناً بشكل مباشر، أو غير مباشر لاسيما بعد معركة بدر الكبرى التدخل وحشد القوى، وأرسل النبي صلى الله عليه وسلم بعض سراياه إلى أطراف الشام حتى يستطلع المسلمون استعدادات البيزنطيين وقد أبلغ رسول الله عليه السلام أن جمعاً كبيراً بدومة الجندل يظلمون من مرّ بهم ممن يجلبون الميرة والطعام، وأنهم يريدون أن يندنوا من المدينة فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ألف من المسلمين فأخذ نعيمهم وشاتهم، ورجع ولم يلق كيداً.

وفي سنة ٦هـ-٦٢٧م ندب الرسول صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل فصالح صاحبها على الجزية.

بعدها أرسل الرسول كتباً إلى هرقل والحارث بن أبي شمر الغساني يدعوها للإسلام وفي السنة ٨هـ-٦٢٩م بعث الرسول سرية كعب بن عمير الغفاري إلى ذات أطلاق من ناحية الشام، وهي وراء وادي القرى بين تبوك وأذرعات، وكان ينزلها قوم من قضاة، وكذلك استتفر الرسول صلى الله عليه وسلم الناس إلى الشام فكانت غزوة ذات السلاسل، والسلاسل ماء بأرض جذام، والغالب أنهم رجعوا من هذه الغزوة دون جدوى.

وأرسل سرية زيد بن حارثة إلى جذام وراء وادي القرى مما يلي فلسطين من أرض الشام<sup>١١</sup>.

ومن هذا المنظور تكتسب غزوات الرسول للشمال تلك الأهمية في مواجهة التحدي الذي فرضته إعادة ترتيب مواقع النفوذ البيزنطي في الأطراف الشمالية.

وقد حدثت هذه المغازي بعد صلح الحديبية، وأسلم في تلك الآونة عدد من شخصيات مكة يتقدمهم خالد بن الوليد<sup>١٢</sup>.

هذا النشاط الإسلامي ضد أطراف الشام دفع بالإمبراطور البيزنطي هرقل إلى إصدار الأوامر إلى أخيه ونائبه في الشام تيودور لمعالجة هذا الموضوع، فحشد بعض القوات البيزنطية، واستنفر عرب الروم، وكسب ودّ الزعماء منهم فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم بهذه التحركات أراد أن يباغت الحشود البيزنطية مع أحلافها فحشد قوة قاربت الثلاثة آلاف مقاتل ٨هـ / ٦٢٩م وأوكل قيادتها إلى زيد بن حارثة، وقال إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة وقد أصحب النبي صلى الله عليه وسلم الحملة بخالد بن الوليد<sup>١٣</sup>.

ولعل الحملة الإسلامية لم تحقق عامل المفاجأة، فلما خرجوا من المدينة سمع العدو بمسيرهم فجمعوا لهم "١٤"، وقد ذكر ثيوفانس أن قرشياً اسمه قطبة عمل حاجباً، و مترجماً لثيودور، كان في الحجاز وقت إرسال الحملة فحدثه عن سيرها، ولهذا فوجئت حملة المسلمين بالحشود البيزنطية قرب مؤتة - في الأردن حالياً - ونشبت معركة غير متكافئة، استشهد فيها القادة زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وهنا تسلم خالد بن الوليد المسؤولية، وقيادة الجيش ورأى الحيلولة دون هزيمة المسلمين ثم انسحب بهم عائداً إلى المدينة بمن تبقى معه "١٥".

وفي سنة ٩هـ / ٦٣٠م علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأن هرقل قد أجنب معه لخم، وجذام، وعاملة، وغسان، وبهراء، وكلب، وسليح، وتتوخ، في طريقهم إلى البلقاء، وكان رده على ذلك تشكيل قوة كافية قادها حتى تبوك، ولم يحدث قتال حيث لما انتهى إلى تبوك أتاه يوحنا بن روبة صاحب أيلة -العقبة - فصالحه وأعطاه الجزية وأتاه أهل جرباء، وأنرح - في الأردن - فأعطوه الجزية<sup>١٦</sup>. وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى دومة الجندل فأسر صاحبها أكيدر بن عبد الملك<sup>١٧</sup>.

وكان آخر جيش جهزه النبي صلى الله عليه وسلم قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى في السنة ١١هـ / ٦٣٢ م بقيادة أسامة بن زيد، وأراد إنفاذه إلى أطراف الشام وتوفي النبي صلى الله عليه وسلم قبل توجه هذا الجيش "١٨".

من معاناة الوضع يتبين أن هذه الغزوات والسرايا مقدمات لفتح هذا الموضع وأن الرسول صلى الله عليه وسلم جعل بلاد الشام هدفاً، وأن التوجه إليها قائماً عبر خطة متدرجة تبدأ بالسيطرة على مشارف الشام كلها ثم تتجاوزها حين تسمح الظروف، والمتفحص لأخبار أعمال الفتوحات يشهد مصداق ذلك، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم في كل الأعمال الحربية لم يدخل في مواجهة مباشرة مع الروم البيزنطيين، ولكن كان لذلك أثره الإيجابي فقد جعل مواجهتهم أمراً واقعاً لا مفر منه وهو في حيز الاحتمال القوي والتقريب، وهو أمر قطعي من صاحب الرسالة إلى أصحابه بأن يكملوا العمل الذي وضع أساسه بنفسه الشريفة، وأثناء ذلك انتقل عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى.

وارتدت بعض قبائل العرب، فقاتلهم خليفة رسول الله أبو بكر الصديق، حتى جمع شملهم بالإسلام، وبالوقت نفسه أنفذ بعث أسامة .

ونطرح الفتوحات الإسلامية أمام المؤرخ أسئلة عدة منها:

- لماذا قام العرب في لحظة معينة من التاريخ بسلسلة من الأعمال الحربية ؟

- ولماذا كان النجاح الذي أحرزوه فيها على ذلك النحو من التفرد؟

وفوق ذلك كله تقوم تلك المفارقة بين الوسائل التي استعملت والنتائج التي تمت، والتي كانت مبعث إعجاب للمؤرخين، وكثيراً ما استتفت كل ما لديهم من اجتهادات ليجدوا التفسيرات الملائمة لذلك.

وإذا كانت الظاهرة في هذه الضخامة فلا نعدم أن نجد إزاءها تطرفاً في التفسيرات، وبخاصة إذا كان المؤرخون يصدر عن مشارب، وثقافات متباينة متفاوتة بين أخذ بالأسباب الدينية، وأخذ بالأسباب الاقتصادية أو النفسية، أو الدينية أو... الخ.

إن اجتماع كل الأسباب كانت عوامل حفزت على الفتح، وهي في الوقت ذاته ساعدت على النجاح الفذ الذي أحرزه العرب في الفتوحات.

لذا لما أراد أبو بكر الصديق رضي الله عنه تجهيز الجيوش إلى بلاد الشام استدعى كبار الصحابة، ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم، وكل ذلك في المسجد النبوي الشريف، وعرض عليهم صورة الأوضاع في شبه الجزيرة العربية، والأطراف، وقال: (اعلموا أن الله فضلكم بالإسلام وجعلكم من أمة محمد عليه السلام وزادكم إيماناً وبقيناً، واعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عولاً أن يصرف همه إلى الشام إلا وأني عازم أن أوجه أبطال المسلمين إلى الشام بأهلهم ومالهم فإن الرسول أنبأني بذلك قبل مؤتة فاستجاب الصحابة لنداء الخليفة، وقالوا له: مرنا بأمرك ووجهنا حيث شئت) "١٩"، وقد أشير عليه أولاً بإرسال سرايا من الفرسان تغير أولاً على أطراف بلاد الشام حتى تمهد لعمل جماعي أكبر، وفي الوقت نفسه استنفر أهل اليمن ومكة والطائف وجميع العرب بنجد والحجاز للجهاد في بلاد الشام ورغبتهم فيه، وفي الغنائم، فسارع الناس إليه بين محتسب وطامع، وأقبلوا ومعهم الذراري، والأموال والنساء، والأطفال، وما كان إلا قليل حتى أشرفت الكتائب، والمواكب " ٢٠ " يتلو بعضهم بعضاً قوم في إثر قوم، وقبيلة في إثر قبيلة، فأنزلهم أبو بكر حول المدينة، وجعل كل قبيلة في ناحية معينة منها " ٢١ " .

وبهذا يكون أبو بكر الصديق رضي الله عنه هو الذي نقل ذلك كله من حيز الاحتمال إلى مرحلة الضرورة " ٢٢ " وحقق رغبة الرسول صلى الله عليه وسلم في إرسال أسامة إلى الشام ١١هـ/ ٦٣٢م الذي كان بحق حلقة ربطت بين العمليات الحربية في

عهد النبوة، وبين عمليات القضاء على الردة، بل وأبعد من ذلك كان حلقة ربطت هذا وذلك بما تلا من عمليات استهدفت فتح الشام " ٢٣ " .

وإن هذا تم اعتماد خطة واضحة لفتح الشام ووقع اختيار الخليفة على ثلاثة من كبار الصحابة لتولي قيادة ثلاثة جيوش، وهم: أبو عبيدة عامر بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة، ويزيد بن أبي سفيان، فاستدعاهم وقال: (إني باعثكم في هذا الوجه، ومؤمركم على هذا الجند، وأنا مكثف مع كل رجل منكم من الرجال ما قدرت عليه، فإذا قدمتم البلد ولقيتم العدو فاجتمعتم على قتالهم، فأمركم أبو عبيدة ابن الجراح، وإن أبا عبيدة لم يلقاكم وجمعتكم حرب فيزيد بن أبي سفيان الأمير، انطلقوا فتجهزوا ) " ٢٤ " .

وأنه لأمر ملفت للانتباه أن يختار الخليفة لغزو بلاد الشام قادة لثلاثة جيوش، في حين اقتصر العمل على جبهة العراق على قيادة واحدة، وجيش واحد، والمرجح هنا أن الوضع الجغرافي لبلاد الشام هو الذي أملى ذلك، فبلاد الشام ساحل طويل على البحر الأبيض المتوسط، ومن هذه البلاد يمكن النفاذ إلى مصر وإلى آسيا الصغرى، وإلى أعالي الرافدين فأرمينية، وإلى العراق، والأراضي الساسانية،

أضف لذلك أن اختيار ثلاثة جيوش لا يدل فقط على حسن استغلال للوضع الجغرافي لبلاد الشام، بل على وجود خطة لمتابعة الفتوح بعد الشام، فقد توجه فيما بعد جيش شرحبيل من الشام إلى الجزيرة فأرمينية، فشواطئ البحر الأسود، وأوربا الشرقية، وتوجه جيش آخر لفتح مصر، وقام جيش ثالث بالجواز إلى آسيا الصغرى وصولاً إلى القسطنطينية، وكان ذلك في العصر الأموي.

والمفيد ذكره أن معظم القبائل التي سكنت الشام قبل الإسلام كانت من أصل يمانى، لهذا قام أبو بكر الصديق رضي الله عنه بإرسال منشور إلى اليمن استنفر فيه جميع عناصرها القادرة على حمل السلاح وقد جاء الاستنفر دعوة إلى الجهاد، ولا شك أن قيادة المدينة أرادت تحييد القبائل الشامية ثم كسبها، وكانت الاستجابة كبيرة لنداء الاستنفر هذا " ٢٥ " .

من جهة أخرى يمكننا القول أن الأعداد الكبيرة من القبائل اليمنية التي وصلت للمدينة يمكن عدّها أشبه بهجرة بشرية منتظمة لا مثيل لها، ويعود قبول إدارة المدينة اصطحاب العائلات أن المدينة لم يكن بإمكانها تزويد الجيوش بالسلاح والعتاد والمؤن، لكن تحرك القبائل بهذا الشكل كان بإمكانه حل هذه المشكلة، فضلاً عن الخدمات العسكرية وسواها، وهذا ما وضع في معركة اليرموك، يضاف إلى هذا أن التحرك القبلي أرهب الإدارة البيزنطية وأرعبها.

وعندما ازداد حجم القوات التي توجهت نحو بلاد الشام، أدخل الخليفة بعض التعديلات على قيادة الجيوش حيث ألحقها بعمر بن العاص، فبات أحد القادة الثلاثة وباتت وظيفة أبي عبيدة، العمل كضابط ارتباط ومنسق بين الجيوش الثلاثة، وبالوقت نفسه بينها وبين المدينة، أي أصبح رئيساً لأركان العمليات العسكرية على جبهة الشام "٢٦". وأوصى القادة في حالة اضطرارهم إلى الانضمام أن تكون القيادة لأمر المنطقة التي فيها التجمع "٢٧".

وكذلك أوصى أبا عبيدة وغيره من القادة بموافاته بتقارير متواصلة عن زحف الجيوش مع أخبار المعارك، واقتضى الحال أن يحمل التقارير المكتوبة رسلاً لديهم الكفاءة، والفهم والمقدرة على تزويد الخليفة بتقارير شفوية والإجابة على كل استيضاح.

وقد تفاوتت الروايات في تقدير عدد الجيوش التي توجهت إلى بلاد الشام والتي قُدرت بأربعة وعشرين ألفاً كما اختلفت في تسلسل أعمال الفتح وتفاوتت كثيراً في التفصيلات "٢٨".

ويبدو أن جيش عمرو بن العاص توجه من المدينة سالكاً الطريق الموازي لشاطئ البحر نحو فلسطين من جنوبها، بينما سلك الجيشان الآخران طريق المدينة، تبوك، معان، فوادي الأردن، وكانت مهمة شريحيل العمل في منطقة الأردن، ومهمة يزيد دمشق ومنطقتها "٢٩".

هذا بالوقت الذي كان فيه الإمبراطور البيزنطي هرقل مقيماً في حمص، ويبدو من هذه الإشارة أن تقديره لخطورة الزحف العربي كانت دون المستوى المتوقع. ولعل مرد ذلك أن الأخبار التي وصلتته تحدثت عن حركة قبائل مهاجرة، ولم تصف زحف جيوش، وكانت السلطات البيزنطية معتادة على مثل هذه التحركات، وكانت تعتمد على السلطات الغسانية في معالجتها والتي وصفت بأنها كانت كالدرع أو المجن الذي يحمي الإمبراطورية البيزنطية من هجمات الأعداء "٣٠" والذي حدث الآن وعلى غير المتوقع إخفاق الغسانية، ثم تحرك المشاعر العربية لدى القبائل الشامية كان غير متوقفاً لدى البيزنطيين حيث كان بين عرب الشام من حمى للقرى، فكان ظهور العرب أحب إليهم، وتعاونت عناصر شامية كثيرة مع الفاتحين في الاستطلاع، وفي نقل البريد بين جيوش المسلمين.

لذا شعر هرقل بخطورة الموقف، فأخذ يجيش الجيوش، ويستعد لمنازلة عظمى، وعرف أبو عبيدة بذلك، فكتب إلى أبي بكر يعلمه بخطورة الوضع المستجد قائلاً: " إن عيوني من أنباط الشام نبؤني أن أول أمداد ملك الروم قد وقعوا إليه، وأن أهل مدائن الشام بعثوا إليه يستمدونه، واجتمعت لدى هرقل قوات عملاقة، أوكل قيادتها إلى أخيه تيودور، وقد كلفه بطرد العرب من بلاد الشام"، وبعد تقدير الخليفة للموقف، قال والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد فكتب إليه وكان على جبهة العراق أن سر حتى تأتي جموع المسلمين بالشام "٣١".

وقد استهدف أبو بكر من أمره خالد بن الوليد بالتحرك نحو الشام، مفاجأة القوات البيزنطية، وضربها من الخلف، والأهم من ذلك إنزال ضربات ماحقة بالقبائل الموالية للروم في البادية ومناطق دمشق، وحوران، أضف إلى ذلك أن أبا بكر كان يرى أن فتح الشام أكثر أهمية من فتح العراق.

والمفيد ذكره معرفة طريق سير خالد بن الوليد حيث انطلق من الحيرة لدعم المسلمين في الشام في الوقت الذي ضاق فيه المسلمون من كثرة جيوش الروم البيزنطيين،

واجتاز البادية زاحفاً أولاً على محاذاة الفرات، ثم بعد عبوره له انحدر جنوباً باتجاه تدمر، وجاء هذا التحرك الذي اعتمد على الجمال بالدرجة الأولى بمثابة لإحدى المعجزات التاريخية، والانجازات العملاقة حيث عبر الصحراء وحل مشكلة الماء أثناء عبوره عن طريق ملء بطون الجمال بالماء بعد أن عطشها لمساعدته في التغلب على هذه المشكلة "٣٢" والمستغرب أن هناك الكثير من الباحثين ما زالوا يأخذون بهذه الرواية التي تركزت حول تحديد الطريق الذي ركبته خالد، وحله لمشكلة الماء، والتي لاتصمد أمام المنطق العلمي، وأهملت ما أنجزه على هذا الطريق، بضرب التجمعات القبلية في البادية للحيلولة بينها، وبين تقديم العون للبيزنطيين، فقد أنزل أول الضربات الموجعة بقبائل تغلب، والنمر ثم أغار على تجمعات قبائل بهراء، وغسان ونسف معسكراتهم، وهكذا حتى وصل إلى تدمر، وعندما مرّ بتدمر تحصنوا منه، فطوقهم، ولكنه وجد الأمر سيطول فتركهم، فما لبثوا أن لحقوا به، وصالحوه، وبعد تدمر اجتاح خالد مناطق البادية ما بين تدمر وريف دمشق وصولاً إلى مرج عذراء، ثم أخذ طريقه نحو الجابية - قرب نوى في حوران - حيث كان أبو عبيدة معسكراً، وبذلك أكمل انزال الضربات بالقبائل، وفاجأ - طبعاً - حامية دمشق وظهر خلف الجيش البيزنطي الذي توجه نحو أجنادين وكان عمرو بن العاص معسكراً هناك، وكان جيش شرحبيل بن حسنة قرب بصرى، هذا والجدير بالذكر أن خالد بن الوليد فتح في طريقه ما اجتاز به من شرق الشام مثل أرك، ودومة الجندل، وقُصم، وتدمر، والقريتين، وحوارين، ومرج راهط، ووجه أحد رجاله إلى غوطة دمشق فأغار على قرى من قراها، وصار خالد إلى البتنية التي تعرف ببتنية العقاب المشرفة على الغوطة، فوقف عليها ساعة ناشراً رايته، وهي راية كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسمى العقاب وأغار على بني غسان في يوم فصحهم، ثم سار خالد حتى انتهى إلى المسلمين بقناة بصرى، ويقال أنه أتى الجابية من حوران، وبها أبو عبيدة في جماعة من المسلمين فالتقيا، ومضيا جميعاً إلى بصرى، ولما فتحت بصرى توجه أبو عبيدة



بن الجراح في جماعة كثيفة، فأتى مأب من أرض البلقاء، وبها جمع للعدو فافتتحها صلحاً، ثم كانت وقعة أجنادين قرب القدس شهدها من الروم البيزنطيين زهاء مائة ألف قتل أكثرهم، وافتتح المسلمون جميع أرض حوران، وغلبوا عليها وقتلت، وذلك في سنة ١٣هـ / ٦٣٥ م.

أما أهم وقائع العرب في الشام التي انهزم فيها الروم شر هزيمة، ولحق فلهم بالشمال معركة اليرموك، فهي المعركة الفاصلة التي هان الاستيلاء بعدها على القدس، ودمشق، وما إليها، ثم على حمص، وحماه، وحلب، وما إليها من البلدان، وظهر فيها النبوغ العربي في الحرب بأجلى مظاهره، وتبين أن تلك الأمة الفقيرة بمالها ليست فقيرة بعقل رجالها، وقرأ العرب على الروم يومئذ درساً من مضائهم، وحسن بلائهم وأروهم صورة من تضامنهم، واستماتتهم، وأتوهم بمثل من طيب أخلاقهم وجودة فطرتهم خلافاً لما كان عليه أعداؤهم من الانقسام وتشنت الأهواء والخصام.

ليس هنا مجال الكلام عن اليرموك إنما لما سار خالد بن الوليد مدداً للمسلمين في اليرموك شرع بتنفيذ الخطة الجادة للفتح، وكان عمرو بن العاص معسكراً هناك وجيش شرحبيل بن حسنة كان قرب بصرى، تلقى أبو عبيدة، وكان معسكراً قرب نوى في حوران كتاباً من أبي بكر قال فيه: أما بعد فإني وليت خالداً قتال العدو بالشام فلا تخالفه، واسمع له، وأطع أمره فإني لم أبعثه عليك إلا أن تكون عندي خيراً منه، ولكنني ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك "٣٢ مكرر"، وقد كان الفتح على يديه، وجاءه البريد يومئذ يخبره بموت أبو بكر الصديق وخلافة عمر بن الخطاب.

من هذا المنطلق نفهم أن العرب دخلوا التاريخ من أوسع أبوابه بعلم وعقل ودراية وشفافية، وإخلاص، مجاهدين في سبيل الله لتحرير بني البشر دون نوازع شريرة من أنانية وسواها لأنهم كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وكان شعارهم (وأن ليس للإنسان إلا ماسعى. وأن سعيه سوف يرى. ثم يجزاه الجزاء الأوفى. وأن إلى ريك المنتهى) "٣٣".

المهم لدى اجتماع خالد بأبي عبيدة تدارس معه الأوضاع، وأخبره أن شطراً من القوات البيزنطية اتجه نحو بصرى للإيقاع بشرحبيل وقصد الشطر الأعظم أجنادين، واقتراح أبو عبيدة التوجه نحو بصرى القريبة للتفريغ عن شرحبيل، فرفض خالد، وقرر التوجه إلى أجنادين، وبعث بالوقت نفسه أوامر إلى شرحبيل بالتوجه نحو أجنادين، وكذلك طلب من يزيد بن أبي سفيان ومن عمرو بن العاص القيام بالعمل نفسه، ثم وجه تحذيراً إلى شرحبيل بأن يبتعد عن مواجهة العدو الذي شخص إليه.

حدث هذا كله سنة ١٣هـ / ٦٣٤م، واجتمع المسلمون بأجنادين بتعداد يقارب الثلاثين ألفاً، واحتشدت القوات البيزنطية بتعداد بلغ ضعف جيش المسلمين أو أكثر، وكانت هذه أول مواجهة حقيقية، وكبيرة بين العرب المسلمين، والبيزنطيين، واعتمد خالد النظام الخماسي: مقدمة، قلب، ساقة، ميمنة، وميسرة، وأضاف جناحين من الفرسان، مع ساقة إضافية من النساء، واحتفظ باحتياطي خاص به من قوات الخيالة، واتخذ البيزنطيون تشكيلة الصفوف المتوالية وتنفذ خالد قواته، وحرصها على الثبات، وقد أمر نساء المسلمين فاحتزنن وقمن وراء الناس، فهن يدعون الله ويستغثنه، وكلما مرّ بهن رجل من المسلمين رفعن أولادهن إليه وقلن لهم: قاتلوا دون أولادكم ونسائكم "٣٤".

ووجه خالد الدعوة إلى الروم بدخول الإسلام، أو دفع الجزية فرفضوا، ونشب القتال برمايات تمهيدية من الرماة الروم، ولكن بعد ذلك تحول القتال إلى اشتباك عام واستغرق ذلك النهار كله دون أن تحسم الحرب لصالح أي من الطرفين ومع حلول الظلام انفصل الجيشان، واستأنف القتال في اليوم التالي، وكانت جثث القتلى من البيزنطيين تغطي أرض المعركة، فذهل البيزنطيون لذلك، وأراد قائدهم استدراك الموقف باغتيال خالد، عن طريق دعوته للتفاوض، وكشفت المؤامرة، واحتدم القتال، وعندما بلغ التعب ذروته لدى الطرفين زج خالد بالاحتياطي الذي كان قد أبقاه لديه، وكان تعداداه أربعة آلاف فارس، وذعر الروم وتمكنت مجموعة من العرب الأشاوس

الوصول إلى مقر القيادة البيزنطية فبطشت بها، ولحقت الهزيمة بالبيزنطيين، وطارده المسلمون الروم إلى مسافات بعيدة، وسقط في المعركة حاكم فلسطين البيزنطي، وفر تيودور عائداً إلى أخيه يحمل العار، والذل، وارتعب هرقل، فغادر حمص إلى أنطاكية، وغدت فلسطين نتيجة هذه المعركة عربية محررة<sup>٣٥</sup>.

ونظف المسلمون جل أجزاء فلسطين من العدو، وبات الطريق مفتوحاً نحو دمشق، ومع هذا كله كان لا بد من إكمال عزل هذه المدينة تماماً، ولذلك خاض المسلمون بعد أجنادين عدة معارك أهمها فحل، مرج الصفر، واستولوا على مرج عذراء، وثنية العقاب، وفتحوا البقاع، ومدينة بيروت أيضاً<sup>٣٦</sup>.

وكان أول ما عمدوا إليه فتح وادي الأردن، وكانت المدينة الرئيسة فيه مدينة فحل، التي تقع مقابل بيسان إلى الجنوب من جسر المجامع، وتجمع في فحل عدد كبير من القوات البيزنطية، وأثناء ذلك جاءت قبيلة لخم، وجذام، وغسان، وعاملة ووالقين، وقبائل من قضاة، فدخلوا مع المسلمين، حيث حركتهم صلة النسب للتضامن مع إخوانهم فكثروا عددهم، وصاروا معهم في معسكرهم، وأخذ أهل البلد من النصاري يرسلون المسلمين قائلين: أنتم أحب إلينا يا معشر المسلمين من الروم، وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى، وأرفأ بنا، وأكف عن ظلمنا<sup>٣٧</sup>.

وحاول البيزنطيون التغرير بالمسلمين بحصرهم وسط بعض المستنقعات بعد تفجير بعض السدود، ومهاجمة القوات الإسلامية الزاحفة على حين غرة حتى تتراجع، ومن ثم تحصر وسط الأراضي الموحلة، وأخفقت هذه المحاولة ذلك أن المسلمين اعتادوا على الزحف وهم على تعبئة حتى لا يؤخذوا على حين غرة.

ويبدو أن القتال استمر عدة أيام، تمكن المسلمون خلالها من ضرب الحصار على الروم، ومنعوا عنهم وصول النجادات والمؤن، وجرت أثناء ذلك مفاوضات بين الطرفين آلت إلى الإخفاق، وبات على هذا الحكم للسيف، وانتصر المسلمون، وأنزلوا بالبيزنطيين هزيمة ماحقة. وبات الآن بالإمكان الزحف نحو دمشق، وهذا ويرجع أن

هذه المعركة وقعت بعد أجنادين مباشرة في سنة ١٣هـ / ٦٣٤م، على أن بعض المصادر تؤخر تاريخها إلى ما بعد فتح دمشق أمثال الأزدي في فتوح الشام، والبلادري في فتوح البلدان، وابن عساكر في تاريخ دمشق، وابن حبيش في غزواته.

ومنح النصر في فرض العرب السيطرة شبه الكاملة على فلسطين، ووادي الأردن، أي على جل الأجزاء الجنوبية لبلاد الشام، وهي الأجزاء المتصلة مباشرة بشبه جزيرة العرب، وهكذا بات بالامكان جلب الامدادات وحماية ظهر القوات العربية، حتى تتفرغ لبقية مشروع فتح بلاد الشام، وفي الوقت نفسه عزلت مصر عن بلاد الشام، وبات من الصعب وصول نجدات بيزنطية من هناك، أو إرسالها إليها براً، وفي هذا برهان على وجود خطط استراتيجية واضحة لمتابعة فتح مصر وسواها.

ويبدو أن هذا الوضع وفر للدعوة الإسلامية مناخاً حسناً، وبالوقت نفسه جعل مشاعر المنطقة التي كانت مأخوذة بالنوازع القبلية في مواقفها الأولى من الحركة الإسلامية جعلتها باتجاه التطلعات الإسلامية، وأغراضها، وتركها وسط تيار الإسلام المتوثب نحو بلاد الشام.

وهكذا لما فكر المسلمون في فتح الشام، انتفعوا برابطة القربى مع القبائل العربية فيها "٣٨"، وعملت رابطة القربى على تعجيل الاستعداد النفسي لعرب الشام في قبول شعارات المسلمين، والمشاركة في طرد البيزنطيين "٣٩"، أضف إلى ذلك أن إيقاظ الفكر لم يكن محصوراً في عرب الشام فحسب، بل نجد غيرهم من أهل الشام يبرز في ظل الظروف المستجدة، يبحث مع المسلمين أمر مواطنهم بعيداً عن المداخلات البيزنطية، ولعل أقرب ما يعبر عن الحالة التي حركت أهل الشام عرباً وغير عرب في موقفهم من الحركة الإسلامية من جهة، وبيزنطة من جهة أخرى، ما ورد عن خالد بن الوليد أن قال في العراق: ويحكم ! ماأنتم ! أعرب؟ فما تتقمون من العرب؟ أو عجم ! فما تتقمون من الإنصاف والعدل!" ٤٠.

ومن المحقق أن العرب المنتصرة في الشام عادوا بعد أن صاروا مع الروم فانسوموا إلى العرب المسلمين، وأخذتهم الحمية العربية .... وأصبحوا عيوناً على الروم. بالعودة إلى مجريات الوضع على الجبهة الشامية نجد زحف العرب مباشرة نحو دمشق حيث كان الطريق الذي يصل دمشق بحمص يمر عبر البقاع إلى بعلبك، وتوجب على العرب السيطرة على البقاع والتوسع وصولاً حتى بيروت، ثغر دمشق، ونحتاج هنا إلى توضيح هام، هو أن السيطرة على البقاع كان هاماً لكن لم يكن حاسماً بالنسبة لتطويق دمشق، فالطريق التي وصلت بين دمشق والبقاع كانت تمر عبر خانق الربوة، وجبل قاسيون، وهذا الطريق لم يكن مفيداً من الناحية العسكرية، وعليه كانت الطريق العسكرية تذهب إلى جنوب دمشق ربما حتى ما بعد مرج الصفر، ثم تتطرق شمالاً، ويظهر مجدداً أهمية معركة مرج الصفر، وقبلها معركة فحل.

وهناك خلاف شديد بين المؤرخين العرب حول تاريخ حصار دمشق، وفتحها، والمرجح أن ذلك كان سنة ١٤هـ / ٦٣٦م أي أيام الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان هذا الخليفة قد قام إثر توليه للسلطة بعزل خالد بن الوليد عن القيادة العامة لجيوش جبهة الشام، فلماذا عزله؟.

إن عزل خالد مجرد عمل تكتيكي، ولأسباب موضوعية، وبناء على اجتهاد رشيد لمصلحة المسلمين، وليس لأسباب شخصية كما يدعي البعض، حيث ظل سيف الله هو الأول بين أمراء جيوش العرب في بلاد الشام، وصاحب الكلمة النافذة، والرأي الراجح في الحروب"٤١".

وفي أثناء حصار دمشق، بعث أبو عبيدة بعض سراياه باتجاه حمص ليحمي ظهره، لكن ذلك لم يؤثر على أعمال حصار دمشق، وكانت دمشق مدينة محصنة متينة الأسوار تحيط بها البساتين من كل جانب، وكان أهم أبوابها آنذاك في الغرب باب الجابية، وفي الشمال باب شرقي ثم باب توما، وفي الجنوب باب الصغير، ولم تتغير مواقع هذه الأبواب حتى الوقت الحاضر، وهي معروفة بالأسماء نفسها، وكان شكل

دمشق أشبه بالبيضة المدحية، لا يكاد بعدها من الرأس إلى العقب يتجاوز ١٥٠٠ م وبعدها الأقصى في الوسط في حدود الـ ١٠٠٠/ م.

وكان سور دمشق مبنياً بالحجارة البيضاء الكبيرة، والقاسية ذات الأشكال المربعة، والأحجام الكبيرة، ووصل ارتفاع السور إلى حدود السبعة أمتار، وسماكته في حدود الخمسة أمتار، وكان لهذا السور عدداً كبيراً من الأبراج الدفاعية، له شرفات، وفتحات لرمي السهام (طلاقات)، والمقذوفات الأخرى، وكان خلف الأسوار خندق عميق مليء بالماء، وطبعاً لم تكن دمشق تملك وقتها قلعة داخلية، وكانت أبواب المدينة متينة، صنعت من الأخشاب السمكية، وغطيت بصفائح من الحديد.

أضف لذلك أنه لم يمتلك العرب آنذاك لا الأسلحة الجماعية، و لا الخبرة باستخدامها، لذلك لم يكن أمامهم سوى مطاولة الحصار حتى تستسلم المدينة، أو يتم تسلق أسوارها، أو يقوم أحد السكان بإدخال عناصر منهم من واحد من الأبواب السرية في السور.

وأحكم العرب الحصار من جميع الجهات، وتمركز كبار القادة عند الأبواب، حيث ترجح معظم الروايات تمركز أبو عبيدة أمام باب الجابية، وتمركز خالد ابن الوليد على باب شرقي، ومعه قوة كبيرة، ويفيد هذا أنه تمركز هو وأبو عبيدة قبالة بعضهما على طرفي الشارع المستقيم لمدينة دمشق، (سوق مدحت باشا وامتداداته)، وتمركز عمرو بن العاص أمام باب الفراديس، ورابط يزيد بن أبي سفيان أمام الباب الصغير، وترك باب ثوما لشرحبيل بن حسنة.

واتخذ المسلمون فرقاً احتياطية، تعمل على قطع الطرق عن دمشق، فعسكر أبو الدرداء عند برزة على طريق بعلبك ليتصدى لأي هجوم آت من الشمال، وأقام ذو الكلاع الحميري بين دمشق وحمص عند ثنية العقاب ليقطع الطريق، وعسكر علقمة ابن حكيم، ومسروق العبسي كي يتصدى لأي هجوم يأتي من جهة فلسطين، وجعلت جماعة عند ميسلون للتصدي لأي زحف يأتي من جهة الغرب، وكان ضرار بن الأزور يتولى قيادة حامية متحركة بين الأبواب ليضمن القيام بالنجدة عند الحاجة.

وقد كان لهذا الإحكام في قطع طرق الاتصال عن دمشق أثره في أهل البلد إذ أيأسهم من وصول نجدات رومية إليهم، واشتد الحصار، وطال، وأخفقت محاولات الروم خرق الصفوف العربية، وأخذت المؤن تنقص داخل دمشق، كما شرع سكان أحواز دمشق في تقديم المساعدات، والإرشادات إلى العرب، وبدأت بعض شخصيات دمشق المعروفة آنئذ بالاتصال بالعرب كأسقف المدينة، ومنصور بن سرجون صاحب المال، وعامل دمشق من قبل الروم، وطلبوا من خالد بن الوليد أن يعطي الأمان لأهل دمشق جميعاً، ومقابل ذلك ستفتح أبواب دمشق للعرب، فأجابه خالد بن الوليد إلى ما سأل، وكتب له أماناً هذه نسخته:

(بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذ دخلها أعطاهم أماناً على أنفسهم، وأموالهم، وكنائسهم، وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم، والخلفاء، والمؤمنين، لا يعرض لهم إلا الخير إذا أعطوا الجزية) (٤٢).

وفتح أسقف دمشق على أثر ذلك الباب الشرقي لخالد بن الوليد فدخل دمشق وبصحبته الأسقف ناشراً كتاب الصلح الذي كتبه خالد بن الوليد له.

وبالوقت ذاته كان أبو عبيدة قد عقد اتفاقاً مع أهل دمشق هذا نصه:

(بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب لأبي عبيدة بن الجراح ممن أقام بدمشق، وأرضها، وأرض الشام من الأعاجم إنك حين قدمت بلادنا سألناك الأمان على أنفسنا، وأهل ملتنا، وإنا اشترطنا لك أن لا تحدث في مدينة دمشق، ولا فيما حولها كنيسة، ولا ديراً ولا قلاية ولا صومعة راهب، ولا تجدد ما خرب من كنائسنا ولا شيئاً منها مما كان في خطط المسلمين، ولا تمنع كنائسنا من المسلمين أن ينزلوها في الليل والنهار، وأن توسع أبوابها للمارة وأبناء السبيل، ولا تؤوي فيها ولا في منازلنا جاسوساً، ولا تكتم على غش المسلمين، وعلى أن نضرب بنواقيسنا إلا ضرباً خفيفاً في جرف كنائسنا، ولا نظهر الصليب عليها، ولا نرفع أصواتنا في صلاتنا وقراءتنا

في كنائسنا، ولا نخرج صليبين ولا كتابنا ولا نخرج با عوثاً ولا شعاعين، ولا نرفع أصواتنا بموتانا، ولا نظهر النيران معهم في أسواق المسلمين، ولا نجاورهم بالخنازير ولا نبيع الخمر، ولا نظهر شركاً في نادي المسلمين، ولا نرغب مسلماً في ديننا، ولا ندعو إليه أحداً وعلى أن لا نتخذ شيئاً من الرقيق الذي جرت عليه سهام المسلمين، ولا نمنع أحداً من قرابتنا إن أرادوا الدخول في الإسلام، وأن نلزم ديننا حيثما كنا ولا نتشبه بالمسلمين في لبس قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا في مراكبهم، ولا نتكلم بكلامهم ولا نتسمى بأسمائهم، وأن نجز مقام رؤوسنا ونفرق نواصينا ونشد الزناير على أوساطنا، وأن لا ننقش في خواتمنا بالعربية ولا نركب السروج، ولا نتخذ شيئاً من السلاح، ولا نجعله في بيوتنا ولا نتقلد السيوف، وأن نوقر المسلمين في مجالسهم، ونرشدهم للطريق، ونقوم لهم من المجالس إذا أرادوها، ولا نطلع عليهم في منازلهم، ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نشارك أحداً من المسلمين إلا أن يكون للمسلم أمر التجارة، وأن نضيف كل مسلم عابر سبيل من أوسط ما نجد، ونطعمه فيها ثلاثة أيام، وعلينا أن لا نشتم مسلماً، ومن ضرب مسلماً فقد خلع عهده ضمناً ذلك على أنفسنا، وذرائعنا، وأرواحنا، ومساكننا، وإن نحن غيرنا أو خالفنا عما اشترطنا لك وقبلنا الأمان عليه فلا ذمة لنا، وقد حل لك منا ما حل من أهل المعاندة والشقاق. على ذلك أعطينا الأمان لأنفسنا، وأهل ملتنا فأقرونا في بلادكم التي ورتكم الله إياها، شهد الله على ما شرطنا لكم على أنفسنا وكفى به شهيداً) "٤٣".

والنقى خالد بقواد العرب في دمشق على مقربة من كنيسة المقدسلاط "٤٤" وأخبرهم بالصلح الذي كتبه لأهل دمشق فأمروا قواتهم بالكف عن القتال "٤٥"، وكتب أبو عبيدة إلى الخليفة عمر بن الخطاب بهذا الصلح فوافق عليه "٤٦".

وتعددت الروايات حول كيفية سقوط دمشق للعرب، ويمكن تلخيصها ثم بعد ذلك مناقشتها، وهي كالتالي:



- ولد لبطريق دمشق مولود، أو كان لديهم عيد فانهمك الناس في الطعام، والشراب فانتهز المسلمون هذه الفرصة، واستعانوا.
- بأناس من أهل المدينة قدموا إليهم السلام والحبال فصعدوا الأسوار، وفتحوا الباب قسراً، ولكن فريقاً آخر من الجيش المحاصر.
- استقبل مفاوضين فيهم الأسقف، ومنصور بن سرجون، وطلبوا إلى المسلمين الأمان، وبخاصة حين استيقنوا أن المدينة دخلت عنوة من جانب آخر.
- أو أن الروم أخرجوا ميّتا لهم من باب الجابية طامعين في غفلة المسلمين عنهم، فتقاتلوا، ودخلوا المدينة فلم الأسقف، ومنصور بما حدث في تلك الجهة فذهبوا إلى الجهة الأخرى، وفاوضوا خالداً على التسليم "٤٧".

من دراسة الروايات، فالأولى تعد نموذجاً تقليدياً يلجأ إليه الرواة، أما الثانية، والثالثة، والرابعة، فتعتمد على عنصر تقليدي، وهو عنصر الخيانة، وذلك أمر ليس بمستبعد فإعانة المسلمين بما يمكنهم من ارتقاء الأسوار، والإسراع إلى الصلح من قبل الأسقف، ومنصور بن سرجون قد يسمى خيانة في رأي الروم البيزنطيين، ولكنه قد يسمى إيثار مصلحة السكان فيما يمليه الوضع حينئذ، ولعل الذي حدث أن مباحثات بين سكان دمشق، وأبي عبيدة كانت جارية لفتح باب الجابية له، مع تبادل للشروط، والمساومات، وأن خالداً قد تمكن من جانبه من الدخول من جهته، لكن ليس بدون مقاومة، وتأخر وصول الخبر إلى أبي عبيدة حيث كان على الرسول إذا ما بُعث الالتفاف حول أسوار المدينة حتى يصل إلى باب الجابية، وكان هذا طبعاً، والأسهل منه بكثير، والأسرع وصول الخبر إلى المدافعين، والمفاوضين عند باب الجابية حيث اتصلوا بأبي عبيدة، وأعلموه بقبولهم بتسليم البلد، وفتحوا باب الجابية فدخل، وفوجئ بقوات خالد في وسط الطريق، وعلى هذا فتحت دمشق نصفها عنوة، ونصفها الآخر صلحاً، وباتت الآن بلاد الشام مفتوحة، والتحقت فلول القوات البيزنطية بهرقل وكان في أنطاكية "٤٨" وقد رفض أبو عبيدة تقسيم الأرض بين الفاتحين، وأبقاها بأيدي

أصحابها على أن يؤدوا خراجها "٤٩" لأنهم أعلم باستثمارها، واختط بها مسجداً ٥٠. "وترك لأهل الذمة خمس عشرة كنيسة يؤدون فيها شعائهم الدينية" ٥١. وفي هذا منتهى التسامح مع أهل الذمة.

وقد ذكر الطبري أن أبا عبيدة بن الجراح دخل دمشق في ١٤ هـ / ٦٣٦ م فشتى بها ولما ضاقت الروم سار هرقل بهم حتى نزل أنطاكية، ومعه من المستعربة لخم، وجذام، وبلقين، وبلي، وعاملة، ومن تلك القبائل من قضاة، وغسان، بشر كثير، ومعه من أهل أرمينية مثل ذلك، وبعث الصقلار خصياً له فزار بمائة ألف مقاتل معه من أهل أرمينية اثنا عشر ألفاً، ومعه من المستعربة من عسان، وتلك القبائل من قضاة اثنا عشر ألفاً عليهم جبلة بن الأيهم الغساني، وسائرهم من الروم البيزنطيين، وسار إليهم عن أربعة وعشرون ألفاً عليهم أبو عبيدة بن الجراح، فالتقوا باليرموك في ١٢ رجب سنة ١٥ هـ / ٢٠ آب ٦٣٦ م فاقتتل الناس قتالاً شديداً ٥٢.

وتدل عبارة الطبري على أن فتح دمشق كان قبل اليرموك، والمعول عليه أن فتح اليرموك كان قبل دمشق فربما أراد هرقل استرداد أرض الشام من العرب لكنه لم يفرط بنفسه بقيادة هذه القوات، ولما علم العرب بأبناء الزحف البيزنطي تداولوا الأمر، وراسلوا المدينة للاستجداد وللإسترشاد، وهنا تقرر الانسحاب جنوباً والتخلي عن حمص، وعن دمشق استعداداً لجولة جديدة ستكون حاسمة في اليرموك.

وكان الجيش الذي حشده هرقل كبيراً، وقد زحف جنوباً دون أن يلقي مقاومة واتخذ قاعدة له قرب الياقوصة ٥٣، على حواف مرتفعات الجولان لحماية الطريق الحيوي الذي يصل ما بين دمشق ومصر، وكانت هذه القاعدة محمية من الخلف بواديان وشعاب وعرة، وكانت مزودة بشكل ممتاز بالماء والمراعي، كما أنها قامت في قلب الشام، وكان القتال فيها يحسم مستقبل بلاد الشام.

وكان قوام الاستراتيجية البيزنطية توفير خنادق طبيعية أو مصطنعة خلف معسكراتهم، وهذا ما وفره الموقع بشكل طبيعي، وكان أيضاً على رأس مبادئ التطبيقات

العسكرية البيزنطية عدم محاولة الدخول بالقتال مباشرة، بل مباشرة مراسلة قادة قوات الأعداء على أمل شراء بعضهم، أو التفرير بهم، أو تمزيق صفوفهم، وفي الوقت نفسه كانوا يشيرون أنه لن يكون هناك قتال بل تسوية، وغالباً ما كان هذا يقود إلى الاسترخاء، والإهمال لدى القوات المعادية، وأيضاً يكون البيزنطيون قد عرفوا أوضاع هذه القوات، ونقاط الضعف، والقوة لديها مع خططها، وهنا في لجة المفاوضات كانت الجيوش البيزنطية تعتمد إلى القيام بهجوم مفاجئ، وصاعق تدمر به قوات العدو، ومن هنا اعتاد أعداء بيزنطة على اتهامها بالعدو، والخيانة، والمهم أننا حين ندرس تفاصيل أخبار اليرموك نجد أن المسلمين كانوا مدركين لهذا كله، لذلك فوتوا على بيزنطة عامل المفاجأة.

ووقف الجيشان أمام بعضهما لمدة تقارب الثلاثة أشهر دون معركة كبرى، بل اختبارات قوة، ومحاولات تغرير ببيزنطة مخففة، ودعوة من قبل خالد بن الوليد للقادة البيزنطيين إلى دخول الإسلام، وعانى الجيش الرومي أثناء ذلك من اضطرابات، وعدم إجماع على رأي واحد مع تنافر بين المجموعات الأممية التي تشكل منها هذا الجيش.

المهم التفاصيل حول معركة اليرموك كثيرة جداً وغنية لا مكان لعرضها هنا المهم عاد العرب إلى دمشق بعد انتصارهم الرائع في اليرموك وفتحوها للمرة الثانية، وجدد خالد بن الوليد لأهل دمشق كتاب الصلح الذي كان قد كتبه لهم وأثبت في هذا الكتاب شهادة أبي عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحيل بن حسنة وغيرهم من قواد العرب "٥٤"، وذلك لأن دمشق من بين المدن التي استردها العرب بعد انتصارهم في اليرموك، وكما سلف ذكره كان خالد قد فتحها أول الأمر صلحاً ثم اضطرت العرب إلى الرحيل عنها، فاستعاد الروم سلطاتهم عليها غير أنهم لم يبقوا بها طويلاً فقد عادت إلى قبضة العرب ١٥هـ-٦٣٦م، ومن ثم أصبح لهم حق التصرف في أرضها، وهكذا استعاد المسلمون دمشق، والمنطقة الوسطى من بلاد الشام "٥٥"

وتفاصيل الأمر أنه بعد اليرموك بقي في أيدي البيزنطيين القدس وعسقلان، وقيسارية من بلدان فلسطين، وكان على العرب بعد استردادهم لكل من دمشق، وحمص متابعة الزحف شمالاً حيث حلب، وقنسرين، وأنطاكية، بعد فرار هرقل منها، وباتت قنسرين مركزاً لتجمع القوات البيزنطية، وقد تألفت من مدينتين مسورتين هما: قنسرين، وحاضر قنسرين، وكان أهل الحاضر من قبيلتي طيء، وتتوخ بشكل رئيسي.

وقبل الوصول إلى قنسرين كان هرقل قد قام بمحاولة أخيرة ضد العرب، فجمع قوة في الجزيرة، وجلب بعض القوات الأخرى عن طريق البحر، وزحفت هذه القوات باتجاه حمص وكان تعدادها يناهز الثلاثين ألفاً، وهنا خرج أبو عبيدة من حمص واصطدم بالقوات الزاحفة، فألحق بها الهزيمة مع خسائر فادحة، وطارد فلولها حتى مرج الديباج قرب أنطاكية، ووقتها هرب هرقل إلى الرها ليمضي إثر ذلك إلى القسطنطينية، وفتح العرب كل من حلب وأنطاكية، ثم التفتوا نحو قنسرين التي استسلمت مع حاضرها، وغدت مفتوحة على قاعدة الصلح.

وإثر هذا أرسل أبو عبيدة سريتين توغلتا قليلاً داخل الأراضي البيزنطية فيما وراء حدود بلاد الشام، ثم عادتا، وبعد هذا قرر أبو عبيدة العودة جنوباً للمساعدة في فتح القدس المحاصرة من قبل القوات المسلمة، فعندما اشتد الحصار طلب المحاصرون الصلح بشرط قدوم الخليفة عمر بن الخطاب ليتسلم مفاتيحها "٥٦".

وقد قدم كما يرجح في سنة ١٧هـ / ٦٣٩م في موكب صغير دون جلبة أو صخب على نقیض ما اعتاد عليه أباطرة بيزنطة.

وليس مدهشاً أن يضرب عمر المثل الأعلى في الزهد، والتواضع، والبعد عن الخيلاء، ومظاهر التجبر، لكن المثير للدهشة أن يتمكن من السفر من الحجاز، إلى بلاد الشام المفتوحة حديثاً بدون حراسة، ففي هذا دليل ليس على سحق القوي البيزنطية، وزوالها كلياً من بلاد الشام فحسب، بل على أن الحكم الجديد نال رضا الناس جميعاً، لذلك

انعدمت القلاقل، والفتن، وتوفر الأمن بشكل منقطع النظير بين سكان البادية والأرياف، والمدن.

ولدى وصوله للجابية تفقد أحوال الجند، وناقش خطط المستقبل، وذلك قبل أن يتوجه نحو القدس، وسيظل دخوله القدس حدثاً عربياً لا مثيل له في تاريخ المدينة المقدسة، وفي تاريخ الشعوب.

والسؤال الذي يطرح نفسه، لماذا سار عمر بن الخطاب إلى الجابية، وتمهل هناك دون أن يسرع إلى مدينة القدس ؟

لعله أراد أن يطمئن إلى أن المدد العسكري الذي أمر بإرساله لينضم إلى جيش عمرو بن العاص قد اقترب من مدينة القدس، وعندئذ يستطيع المسلمون أن يتفاوضوا مع زعماء المدينة من مركز يضعونهم فيه بين خيارين خيار الصلح والسلام، وخيار الحرب إن لم تكن هناك سبل إلى الصلح.

والجدير بالذكر أن الجابية كانت معسكراً كبيراً للمسلمين منذ البداية تجتمع فيها الجيوش المسلمة عند توحيدها وظلت عاصمة لجند دمشق حين حددت الأجناد وهناك تلقاه القواد، وفئات الجند يسلمون عليه، ويعرف ذلك اليوم بيوم الجابية، وقد حقق أثناء إقامته في الجابية أموراً كثيرة على المستوى العملي، وقد لخص سيف بن عمر ذلك بقوله: (قسم الأرزاق وسمى الشواتي والصوائف، وسد فروج الشام ومسالحها، وأخذ بنزقتها، وسمى ذلك في كل كورة...) (٥٧).

ثم قصد القدس، وكان موكب الخليفة صغيراً بدون جلبة، أو صخب على نقيض ما اعتاد عليه أباطرة بيزنطة، وقد وجد بلاد الشام آمنة مستقرة، وفي هذا دليل على سرعة تجاوب السكان مع الفاتحين، ولدى اعتماد الخليفة لخطط فتح جديدة ألغى جيش شرحبيل بن حسنة، وأفرد الجزيرة، وجعلها مصرّاً قائماً بذاته، حيث سيعيد بأموره إلى جند الكوفة، بعد تقسيمه لجهة العراق إلى جنديين، البصرة والكوفة، ولعله أيضاً وافق

على الشروع بالإعداد لفتح مصر، فمن الآن وصاعداً ستكون بلاد الشام، قاعدة لحركة الفتوحات الكبرى التي ستتطور كثيراً في العصر الأموي.

وسيزل دخوله على القدس حدثاً عربياً لا مثيل له في أخلاقيته، وإيجابياته في تاريخ المدينة المقدسة، ولا في تاريخ الشعوب، فقد عامل أهل القدس معاملة رائعة وتعامل مع المدينة على أنها دار السلام، ودخل أمير المؤمنين القدس راجلاً يقود زمام ناقته، وقد ركب عليها غلامه لأن نوبته بالركوب تواءمت مع ساعة الدخول، وكان أمير المؤمنين يرتدي أبسط الملابس، وهكذا تجول في المدينة، ودليله البطريرك صفرونيوس، وقد رفض مصادرة آية كنيسة، أو مكان من أمكنة أهل الذمة، واختط المسجد العمري في موقع شاغر، وأمضى صلح المدينة الذي سمي " العهدة العمرية " والتي ضمنت الحرية الدينية المطلقة، والحفاظ على الكنائس، والأموال وقضت بفرض الجزية على أهل الذمة، وعدم جبايتها في ذلك العام من الذين جفلوا من مناطقهم ولجأوا إلى القدس حتى يحصد حصادهم.

فهل يعرف تاريخ العالم، تاريخ الحرب وتاريخ السلام قديماً أو حديثاً في مشارف الأرض ومغاربها جيشاً يضرب الحصار، ويأتيه المدد من الجند والسلاح يعرض على أهل المدينة المحاصرة ما يضمن هذا العهد العمري من مبادئ إنسانية بلغت ما بلغت من أقصى درجات العدل والتسامح ؟

لقد أوقف نزيف الدماء، وصان المدينة المقدسة، وأماكنها من الدمار مؤكداً على المكانة السامية للقدس لدى العرب، فهي أولى القبلتين والثالثة في المكانة بعد مكة والمدينة، ولكن على الرغم من هذا التقدير فقدت المدينة مكانتها السياسية، لأن الوضع الاستراتيجي السياسي والعسكري تبدل في بلاد الشام، فبعد ما مكثت هذه البلاد لقرون مدينة تابعة لروما الغربية ثم الشرقية عادت إلى أصلتها العربية، وخلال أقل من عقدين من الزمن لم تعد كل الطرق تقود إلى روما، بل إلى دمشق، وتولت دمشق قيادة دار السلام، ونشر الإسلام في أرجاء الدنيا.

وقد شملت عناية عمر رضي الله عنه الأمور الإدارية فجعل يزيد على دمشق واعتذر للناس عن عزل خالد، وسمح بسكنى المسلمين في مدن كان يسكنها أهلها الأصليون، وقد سكن البعض منهم في الأطراف، ولعله كان شديد القلق على مستقبل العلاقات بين الفريقين، بل لعله كان يخشى أن تجرّ المعاشية إلى تغير في القيم، وطرق المعيشة، وأكثر ما أقلقته مسألة انتشار الطاعون الذي استمر حتى ١٨هـ/ ٦٣٩م وأفنى عدداً كبيراً من المقاومة العرب، وقادتهم "٥٨"، كأبو عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان وغيرهم، الأمر الذي جعله يراجع الأمور الإدارية أكثر من مرة، فأسند إلى معاوية بلاد الشام "٥٩" هذا الحدث يعد المقدمة البعيدة لتأسيس الدولة الأموية.

وبعدها خلصت الشام للحكم العربي، ولم تعد تعرف باسم سورية بل بالشامات "٦٠"، أو بلاد الشام، وبعد فتح القدس فتحوا المتبقي من مدن الساحل الشامي مثل طرابلس، وقيسارية، وعسقلان "٦١".

وظل معاوية بن أبي سفيان والياً على بلاد الشام في خلافة عثمان بن عفان، فتوجهت جهوده إلى منطقة الساحل استكمالاً للفتح ثم إعادة الفتح، فشحن المراكز الساحلية بالقوى الدفاعية التي تستطيع صد الهجوم من البر والبحر، وحماية التجارة البحرية بوجه خاص، وكل مركز منها يشرف على حماية ما يليه من خط الساحل شمالاً وجنوباً لأن الساحل قسم إلى شرائح يتبع كل منها جند من الأجناد، وجعلوا عواصمها في الداخل على خلاف ما كان عليه الحال في حكم الروم، وقد أطلق الخليفة عثمان يد معاوية في غزو البحر "٦٢"، وهذا خارج عن نطاق البحث.

والمفيد ذكره أن الفتوحات لم تكن مقصورة على الأعمال الحربية، وخوض المعارك واحدة إثر أخرى، والاستيلاء على المدن، ومصاهرة التي تمتنع منها حتى تستسلم، بل كان للفتوحات جانبها التنظيمي وللتلازم مع الأوضاع المستقرة الجديدة وما تقتضيه، فألغيت التقسيمات الإدارية البيزنطية لبلاد الشام، وقسمت إلى أربعة أجناد هي: جند دمشق، وجند حمص، وجند الأردن، وجند فلسطين، وفي العصر الأموي أيام يزيد

ابن معاوية قسم جند حمص إلى قسمين، هما جند حمص، وجند قنسرين، وكانت دمشق حاضرة جند دمشق وفيه من الكور بعلبك قاعدة البقاع، وهوران ومدينته بصرى، والبثنية، ومدينتها أنرعات، والجولان، ومدينة بانياس، وكورة الشراة، ومدينتها أنرح كما كانت هناك مناطق أخرى هي المناطق الساحلية لعرقه، وطرابلس، وجبيل، وببروت، وصيدا.

وضمن جند حمص وسط بلاد الشام مع الشمال، وكان من أهم مدنه: حماة وشيزر، وأفاميا، وتدمر، ومعرّة النعمان، وحلب، والبارة، وقنسرين، وانطاكية مع اللاذقية، وجبلة، وبانياس، وطرطوس على الساحل. وكانت مدينة طبرية هي قسبة جند الأردن، ومن مدن هذا الجند في الداخل: بيسان، وفحل، وجرش، وفي الساحل صور وعكا.

وكانت اللد قاعدة جند فلسطين، ومن مدن هذا الجند القدس، وعمواس، ونابلس، وسبسطية، وبيت جبرين، وامتلك كل جند خراجة ونواة إدارة مستقلة، وعامل وحامية. وإلى جانب ذلك كان هناك ربط بين التصور الفكري، والعمل للحرب وناقش إمكانية إيجاد مراكز رئيسة للإدارة، واستقرار المقاتلة، وعائلاتهم، وكذلك توزيع قوات صغيرة نسبياً لتقيم بصورة دائمة في الأماكن ذات الأهمية العسكرية، وهذا يتطلب عدم الاقتصار على المراكز الرئيسية الكبيرة المحدودة العدد وإنما أيضاً إنشاء مراكز متعددة صغيرة، وخاصة في المناطق الشمالية، والغربية<sup>٦٣</sup>.

أضف لذلك توفير المؤن التي تكفي الجند، وعائلاتهم، والعلف الذي لا بد منه لدوابهم، وكان لابد للدولة من امتلاك الخيل، وتربية الجمال، وشرائها لتكون احتياطياً لما يهلك منها في المعارك، أو يفقد صلاحيته مع الزمن، ولهذا عمدت الدولة منذ أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى تحديد حمي خاص يصبح عند الحاجة مصدراً لتزويد جبهات الحرب بالخيول والجمال، ويلحق بهذا كله العناية بالجرحى، والمرضى، ولعل هذا هو الذي شجع إلى جانب عوامل أخرى إلى اصطحاب النساء في



المعارك، وبقينا كانت الوسائل المتبعة في التطيب بسيطة وكانت الروح المعنوية التي تلهم أصحابها القدرة على الصبر والحوافز الدينية التي ترحب بالاستشهاد هي أقوى الأدوية في مغالبة الجراح، والمرض إلى جانب الوسائل الأولية في العلاج.

وقد كان للفتوحات نتائج حيث حققت نشر الدين الإسلامي في الأصقاع المترامية، وهي التي كتبت السطور الأولى في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، لأنها اللبنة الأولى في كل ما نعهده عربياً إسلامياً حتى الفتن التي كانت وليدة تدفق الأموال والصراع على السيادة، كل ذلك وغيره كان من تراث تلك الفتوحات.

وأول ما نلاحظه في بلاد الشام أنها ظلت ولاية في نطاق ولايات أخرى تابعة لعاصمة خارج حدودها، وليس من السهل أن نعرف في أي الفترتين الإسلامية أو البيزنطية كانت أكثر استقلالاً ذاتياً، ولكن يبدو لنا أنها منذ أيام عثمان تمتعت دون سائر الأمصار الأخرى بما يميزها من عناصر إدارية، وتنظيمية مرهصة للاستقلال الذاتي، ولهذا لم يكن استشعارها بذلك التميز فجائياً حين حول معاوية بن أبي سفيان مركز الخلافة إليها، وانتزعها من الكوفة، واتخذ من بلاد الشام المتوسطية داراً لسلطانه، وهو كان قبل الخلافة والياً على الشام والجزيرة عارفاً بأهلها وعارفين به، الشيء المهم أنه منحها الشعور بأنها لم تعد ولاية تابعة، بل أصبحت لها مكانة السيد الموجه لسائر الولايات.

وكان الفتح نفسه يحمل معه مشكلاته الكثيرة، ولذلك كان التغيير الشامل في النظام الكلي لشؤون الحياة كالجباية، والإدارة، ونظام المدن، ونظام الطرقات وغير ذلك يزيد من تعقيد تلك المشكلات، ولهذا فإن الفاتحين لم يأخذوا من هذه المظاهر إلا ما يلائم أوضاعهم الأنية من تغييرات جزئية، هذا بالإضافة إلى أن التغيير يستدعي إيجاد بدائل، ولم تكن هذه البدائل جاهزة يومئذ لدى الفاتحين، فظل المبنى التحتي من هيكل الدولة قائماً كما كان في العصر البيزنطي على وجه التقريب.

ولكن من البديهي أن الفتح كان يعني نجاح العرب في التوسع الجغرافي والاقتصادي، وبسط السيادة العربية على أرض جديدة وهذا أوجد تربة خصبة صالحة للتعريب، ونشر الإسلام معاً.

والجدير بالذكر أن فتح بلاد الشام عامة، ودمشق خاصة كان له أكبر الأثر في إحياء الصلات القديمة التي كانت تربط بين العرب المقيمين في دمشق، وبين العرب الفاتحين، وساعدت وحدة الجنس، ووحدة اللغة على اندماج الفريقين، كما أدى الاتصال الاجتماعي بينها إلى تكوين مجتمع جديد في دمشق، وكان طبيعياً ألا يتخذ هذا المجتمع الجديد شكله النهائي في بضع سنوات، وقد كانت اللغة العربية منتشرة في دمشق قبل الفتح العربي فقد نشرها العرب الذين كانوا يدينون بالوثنية ثم العرب الذين دخلوا في المسيحية بعدهم، ولما فتح العرب المسلمون دمشق، وهاجرت بعض القبائل العربية إليها زادت العربية انتشاراً ورسوخاً في هذه المدينة، واضطر أهلها من غير العرب إلى تعلم العربية، لأنها لغة الحاكمين "٦٤".

ومما ساعد على انتشار اللغة العربية في دمشق أنها لغة الدين الجديد، كما أن العرب سعوا إلى جعل اللغة العربية لغة أدب وثقافة إلى جانب الدين، ولم يحارب العرب اللغة اليونانية، - لغة السواد الأعظم من سكان دمشق، - بل ساروا في نشر لغتهم سيراً حثيثاً "٦٥".

وانتشر الإسلام بين عرب الشام الذين يقطنون في دمشق، ونواحيها بعد أن توطدت العلاقات بينهم وبين العرب القادمين من الجزيرة العربية، ولعل انتشاره بين القبائل المسيحية التي تقيم في منطقة دمشق أكثر من انتشاره بين سكان هذه المدينة "٦٦".

ومن العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام في دمشق وفود نفر غير قليل من الصحابة، والتابعين إلى هذه المدينة، وإقامتهم بها وحماسهم لهداية الناس إلى الدين الحنيف "٦٧".

كما كان للانتصارات الرائعة التي أحرزها العرب في بلاد الشام أثر كبير في جعل المسيحيين يعتقدون أن هذه الانتصارات إنما تمت بعون من الله وأن نجاح المسلمين دليل على صدق دينهم "٦٨"، وكان دخول أهل دمشق في الإسلام عن اختيار وإرادة "٦٩"، وكان انسياح المهاجرين إلى تلك المناطق تلقائياً، ولم تظهر مشكلات لتلك الهجرة في القرون الأولى.

وبالتالي اختفت الغارات البدوية الخاطفة للسلب والنهب أو السرقة، واختفت أيضاً التجارة مع أسية الصغرى، وتأثر تسويق بعض البضائع والسلع الرائجة التي كانت في الدولة البيزنطية كالخمر والبخور والتوابل والأيقونات، وأدوات الترف، وقد واكب هذا التضعف في الوضع التجاري إقبال أكبر على الزراعة حيث كثر توزيع الأراضي كالموات، والصوافي والقطائع على المستثمرين الجدد، ومن الغريب أننا لا نسمع في هذه المدة عن منازعات على الأرض بين الفلاحين، ولا عن تظلم من الضرائب، وشكوى من عسف الولاة إلا ما ندر. وكان لهذا الوضع أثر في نمو الحرف.

وقد توقفت الفتوحات بسبب الفتنة الكبرى "٧٠" بعد مقتل الخليفة عثمان ابن عفان، والصراع بين علي بن أبي طالب ومعاوية، وأثناء ذلك كان قميص عثمان رضي الله عنه، وأصابع زوجته نائلة في طريقها إلى دمشق مع النعمان بن بشير "٧١"، وفي لحظة ربط معاوية بين قميص عثمان، وبيعة علي كرم الله وجهه من أجل أن يكون موقفه غداً واضحاً إذ طالبه علي بمبايعته، وقد جرت مراسلات سلمية بين علي ومعاوية "٧٢"، تمخضت بزحف علي بجيشه إلى الشام وعباً لذلك جيشاً صغيراً، ولكن صغر الجيش حوّلته عن الذهاب إلى الشام، أضف لذلك خروج طلحة، والزبير، وعائشة إلى البصرة "٧٣"، ولعله وجد الفرصة سانحة لتحقيق أمرين أولهما تكثير عدد جيشه بأهل الكوفة، وأكثر من يواليه، والاستعداد للقاء طلحة، والزبير، وعائشة، إن اختاروا الحرب، وهو جيش يصلح للقاء أهل الشام إن أصروا على

عدم البيعة، والأمر الثاني أنه عندما يتمركز في الكوفة يكون لديه ظهير قوي في مواجهة الشاميين أي أنه ينطلق من منطقة تشايعة، يستطيع أن يفيء إليها عند الحاجة بعكس زحفه من الحجاز إلى الشام، فإن في مقدور معاوية حينئذ أن يقطع عليه خط الرجعة حين يدخل الأرض الشامية، كما يستطيع أن يحول دون طلبه المدد من مصر عند الحاجة إليه.

وحين تحقق معاوية أن علياً رضي الله عنه مشغول بالقضاء على ثورة الخارجين بالبصرة، لم يوفر جهداً في تعبئة أهل الشام نفسياً، واستمال إليه عمرو ابن العاص، ووعد بمصر طعمة له "٧٤"، واشترى الهدنة من ملك بيزنطة بالهدايا، واستدعى إلى دمشق زعيم أهل الشام شرحبيل بن السمط الكندي "٧٥" ولعله كان في حمص، و ما أن وصل إلى دمشق حتى انضم إلى معاوية في المطالبة بتسليم قتلة عثمان إلى وليّ المقتول بحسب نص القرآن، وقتلة عثمان موجودون في جيش علي، ولسنا نسأل هل كان معاوية ولياً لعثمان رضي الله عنه؟

وتسارعت الأحداث، وأدت إلى مقتل علي رضي الله عنه، وتنازل الحسن عن الخلافة، وبويع معاوية بالخلافة، وانتقلت العاصمة إلى دمشق، وانتقل بيت المال إلى دمشق وأصبحت دمشق أهم الولايات منها انطلقت الجيوش إلى الجبهة الشمالية ضمن خطة تهدف إلى القضاء نهائياً على الدولة البيزنطية من خلال إسقاط القسطنطينية، ولكن جهوده باءت بالفشل، ومنها قامت الحملات العسكرية أيضاً في الجبهة الجنوبية. لكن أن الدولة الأموية دخلت في نفق مظلم وابتعدت عن الشورى، وأخذت بمبدأ العهد، والوراثة في الحكم، ولعل للبيئة أثرها في فرض النظام، ففي المدينة كانت البيئة عربية بدوية، لذا كانت السيادة والنفوذ للعنصر العربي الذي تتفق ميوله البدوية، ونظام القبيلة، والشورى.

أما في دمشق، فالبيئة بيزنطية ملكية، فظهر أثر ذلك على العرب، وحاول معاوية تقليد النظام البيزنطي والساساني "٧٦"، فهو أول من وضع الحشم للملوك ورفع

الحراب بين أيديهم، وأقام الحرس، والشرط، والبوابين، وأرخی الستور "٧٧". ووضع المقصورة التي يصلي الخليفة بها في الجامع منفرداً، فإذا سجد قام الحرس على رأسه بالسيف، وهو أول من وضع البريد لوصول الأخبار إليه بسرعة "٧٨".

أضف لذلك فإن معاوية قد أوجد منصب الحاجب، وهو منصب سامي في البلاط الأموي، فهو الذي يدخل الناس حسب مقاماتهم للخليفة، أو يحجبهم عنه وذلك خوفاً على أنفسهم، وتلافياً لازدحامهم على الأبواب، وهو لسان الخليفة ووجهه "٧٩".

ولقد شاع التأنق والترف، وتنوعت الأطعمة، وظهرت هوايات، وتسليات متنوعة، وشيدت القصور فقد بنى الأمويون الكثير منها لا مجال لذكرها فالبحت حتى نهاية عهد معاوية لذا فسندكر أن معاوية اتخذ قصر الخضراء، وذلك قبلي الجامع الأموي - وقد سمي بذلك نسبة إلى القبة الخضراء التي كانت فيه - مقراً له ومركزاً لإدارة شؤون الحكم، وكان هذا القصر من المباني التي شيدت في عصر الرومان فجده معاوية أبان ولايته على الشام في عهد الخليفة عثمان بن عفان، وبناء معاوية بالطوب أولاً ثم أعاد بناء الخضراء بالحجارة، وزينه بالذهب والفسيفساء، والمرمر، وأحاطه بالحدائق الغناء "٨٠"، وقد ظل هذا القصر مركزاً لإدارة الدولة وسمي دار الإمارة، وقد وصفت بأنها كانت أشبه بخيمة شيخ من شيوخ القبائل العربية منه بقصر الملك ذي مراتب للرعية مسيج بالحرس، والحراب، بل لعله كان مجلساً مفتوحاً لمن يقصده من القبائل أو من عامة الناس فضلاً عن خاصتهم، وهي عادة قد يكون معاوية ورثها عن أبيه الذي يعرف في الجاهلية بشيخ قريش "٨١".

وكثر القيان، وظهرت مراكز اللهو، والمجون والغناء، ولحن المغنون القصائد الشعرية، وقد كان التغيير حادثاً ولا بد، ولكنه كان بطيئاً بسبب صلابة العقيدة، وعدم التهاون في تطبيق الحدود، وعدم الانسياق الكلي وراء متطلبات المجتمع الجديدة، وتجنبه ما قد تحمله معه رياح التغيير من عناصر، فقد زود ذلك المجتمع بالوسائل الأولية التي لا بد منها للحفاظ عليه، وفي مقدمة ذلك إمداد المجتمع

بالقصاص الوعاظ المذكرين، وبالمعلمين الأفاضال الذين يصلحون أن يكونوا قدوة لغيرهم، لأنهم يطابقون بين القول والعمل.

وقد كان القصص في أيام الخلفاء الراشدين هو قصص العامة إذ يجتمع النفر من الناس إلى القاص فيعظهم، ويذكرهم، ثم استحدثت معاوية ما يسمى قصص الخاصة، إذ عهد إلى رجل يتولى القصص بعد صلاة الصبح مباشرة، أي أصبح القصص نشاطاً توجهه الدولة، وتدفع الأجر لصاحبه، وكان القاص يدعو للخليفة، وأهله، وأهل ولايته، وذكر الخليفة هنا قد يشير إلى أن معاوية استحدث هذا النوع من القصص في خلافته، لا في أيام إمارته على الشام " ٨٢"، ولكننا يجب ألا نأخذ هذه اللفظة بمعناها الحرفي لأننا نعلم أن جيش معاوية، وهو سائر إلى صفين كان يحوي عدداً غير قليل من القصاص، يقصون على الجيش الشامي، ويحرضونه على القتال.

وقد شارك أولئك القصاص في عملية التنقيف جماعة الصحابة، فكانوا لا يغفلون عن رصد كل ما يوحى بتسمح من جانب الحق، وحين احتاج المجتمع الشامي إلى الصحابة المعلمين، كتب يزيد بن أبي سفيان إلى عمر يقول: إن أهل الشام كثير، وقد احتاجوا إلى من يعلمهم القرآن، ويفقههم، فاختاروا ثلاثة من كبار الصحابة، ووجه بهم إلى الشام، وهم معاذ بن جبل، وعباد بن الصامت، وأبو الدرداء، وقال لهم: "ابدعوا بحمص، فإذا رضيتم، فليخرج واحد إلى دمشق، والآخر إلى فلسطين، فأقام عبادة بحمص، وخرج أبو الدرداء إلى دمشق، ومعاذ إلى فلسطين" ٦٨، وقد أصبح هؤلاء أقطاب الحركة العلمية في بلاد الشام، ومؤسسيها، فهم الذين يعقدون مجالس العلم، ويتخلق حولهم الناس، وكثر تلامذتهم، والآخذون عنهم، فكونوا الجيل العلمي التالي " ٨٣".

وقد كثر الذين كانوا يقرؤون على أبي الدرداء، حتى بلغوا في تقدير أحدهم ما ينيف على ألف وستمائة ونيفاً من التلاميذ " ٨٤".

ولقد ورثت أم الدرداء شيئاً من طريقة زوجها في التعليم والإقراء "٨٥"، الأمر الذي يدل دلالة واضحة على أنه كان للمرأة دور واضح في تنشيط الحركة العلمية في دمشق، وعن أم الدرداء أخذ القراءة عطية بن قيس الذي كان الناس يصلحون مصاحفهم على قراءته، وهم جلوس على درج الكنيسة الملاصقة لمسجد دمشق قبل أن تهدم "٨٦"، ويستفاد من هذه الرواية أنه كان لكل واحد مصحفه الخاص به، وهذا يجعل رفع المصاحف على رؤوس الرماح في صفين رواية قابلة للتصديق.

وكان من تلامذة أبي الدرداء النابهيين أيضاً أبو أدريس الخولاني عائذ بن عبد الله من ساكني دمشق، وقد أصبح أبو ادريس عالم أهل الشام بعد أبي الدرداء، وانضم إليهم عدد آخر من الصحابة أصبحوا مقصد طلاب الحديث فيما بعد في النواحي المختلفة "٨٧"، هذا في الوقت الذي برز فيه دور المسجد الجامع كمركز ديني، وسياسي، ففيه تؤخذ البيعة للخلفاء، ومن على منبره توجه الخطب، والنداءات، وتتلّى المراسيم، والأحكام، وإليه يتجه الوالي أول ما يتجه حين يرسله الخليفة عاملاً له إلى أحد الأمصار، أو المدن، كل ذلك فضلاً عن الصلاة الجامعة التي تعقد كل يوم فيه، وهو المدرسة الأولى في الإسلام، فأينما وجدت المساجد كانت مراكز لتعليم العلوم القرآنية، وعلوم العربية، وجماع الثقافة في العصر الأموي، ما كان ليخرج عن علوم القرآن، وأحاديث العرب، ونوادرها، وأخبارها، وأشعارها، فضلاً عن علم الأنساب.

ولعله إلى جانب المساجد كمراكز للتعليم نشأت مدارس أخرى على هيئة كتاتيب يعمل بها هيئة احترفت التعليم، ومنهم يتم اختيار مؤدبي أولاد الخلفاء أو مؤدبي أولاد الأمراء، والخاصة، وقد اختار معاوية لابنه يزيد أحد النسابة المشهورين لتأديبه، ومصاحبه، وهو دغفل بن حنظلة الشيباني، نظراً لاهتمام معاوية بالأنساب "٨٨".

وبمناسبة الحديث عن المساجد ينبغي القول: إن عمر بن الخطاب حين قدم إلى الشام ١٨هـ-٦٣٩م أمر ألا يتخذ في المدينة سوى مسجد جامع واحد، وأراد عمر بذلك المسجد الذي تقام فيه الجمعة، ولم يمه عن اتخاذ المساجد التي لاتقام فيها الجمعة "٨٩".

واكتفى العرب بعد فتح دمشق بمسجد متواضع كان يوجد إلى جوار كنيسة القديس يوحنا، وتركوا الكنيسة كلها للنصارى يؤدون فيها شعائرهم الدينية، أما القول بأن العرب استولوا عقب الفتح مباشرة على نصف الكنيسة لإقامة شعائرهم الدينية، وتركوا النصف الآخر للنصارى مكافأة لهم على استسلامهم، وأن المسلمين والنصارى كانوا يدخلون من باب واحد هو باب الكنيسة القبلي فيأخذ المسلمون يمينهم على القسم المخصص لهم، على حين ينصرف النصارى إلى جهة الغرب لأداء شعائرهم الدينية، فهذه كلها روايات متأخرة، وغير صحيحة<sup>٩٠</sup>.

وتوضح الروايات الغربية التي تصف الحوادث التي وقعت بعد ذلك أن المسجد القديم كان منفصلاً تمام الانفصال عن الكنيسة، وأن قصر الخضر كان مجاوراً لهما.

ومن المرجح أن جيرون هو المسجد القديم، وليس أدل على ذلك مما أورده الطبري، فقد ذكر أن اليوم الذي اجتمع فيه المسلمون لاختيار خليفة جديد عقب وفاة معاوية الثاني ٦٤هـ - ٦٨٣م عرف باسم يوم جيرون نسبة للمسجد الذي اختير فيه الخليفة "٩١".

وقد حاول معاوية بعد أن ازداد عدد المسلمين في دمشق توسيع بناء المسجد الذي ضاق بالمسلمين فطلب من نصارى دمشق النزول عن كنيسة القديس يوحنا فرفضوا إجابة طلبه "٩٢"، وظل المسجد على حاله حتى آلت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك فتغير الوضع. وهنا لامجال لذكر التفاصيل أضف لذلك أنه حين تولى معاوية أمر الشام، وكان بعيد النظر في العمران فطلب من الخليفة، عثمان رضي الله عنه أن يبني المساجد، ويكبر ما كان ابتنى منها قبل خلافته، وهكذا بدأ التوسع في المساجد، والجوامع عقب استقرار الفتح، ورسوخ أقدام بني أمية.

أما الأعمال الإدارية، فالجند عنده فرقتان كبيرتان، الأولى الشرطة، وهي لحماية الخليفة والمدافعة عنه في الملمات، يختارها بنفسه، أو يختار له من يثق به ويدفع له الأجر للحماية والدود عن نظامه، والفرقة الثانية هي الجيش، والجيش للثغور، والجهاد وقد يوجه ضد الثائرين "٩٣".



وهناك القاضي، ويتصل بالقاضي وظيفة صاحب السوق الذي يعرف بالمحتسب ، أضف لذلك أنه كان هناك تنظيمات مالية كالجزية على الرؤوس، والخراج على الأرض، وفي تقدير الجزية اعتمد مبدأ التفاوت في الثراء، ولعل ضريبة الجزية كانت موجودة في الشام أيام الحدم البيزنطي "٩٤".

والجدير بالذكر أن الفتح أحدث تغييرات في التركيب السكاني، فتشكلت فئات جديدة مستحدثة من فئات الأشراف العربية ذات الثراء الكبير كانت تتحلق حول الحاكم الأموي، وتؤازره للحفاظ على مواقعها، وهي طائفة ذات ثراء، وامتيازات مالية، وإقطاعية مستحدثة "٩٥"، أعادت للذهن ما كان لبني عبد شمس، والبيت الأموي في الجاهلية من قوة مالية بسبب سيطرتهم على عصب التجارة في الجزيرة العربية، وقيادتهم لقوافل التجارة الزاهية من مكة، وإليها شمالاً إلى بلاد الشام، وجنوباً إلى اليمن السعيد في ما سمي برحلتى الشتاء، والصيف "٩٦"، حتى لكان عصر بني أمية شهد إيلافاً جديداً للقوة المالية، كان قد مثله إيلاف قريش في الجاهلية، وشكلت مكة عاصمته التجارية الكبيرة "٩٧".

والمفيد ذكره أن الفتح الإسلامي جاء إلى الشام بشكل عام بقيم جديدة، وب عقلية جديدة مختلفة، وب عقلية مختلفة، وبتصور ثقافي مغاير كثيراً لما كان عليه الحال أيام الروم البيزنطيين، وبخاصة اتباعهم لسياسة التسامح الديني حيال أهل الكتاب، الأمر الذي أدى إلى تفاعل، وتلاقح ثقافي بين الثقافة الإسلامية، وثقافات الشعوب المتعددة والتي دخل إليها الإسلام، سيما وأن صلة العربي اللغوية مع العربية لغة الفاتحين الجدد، والسريانية المنتشرة في بلاد الشام، والمتوافقة الجذور مع العربية، جعلت انتشار العربية سهلاً، وربما نشأت من جراء ذلك الاختلاط عربية ميسرة يشوبها شيء من اللحن سادت بين السكان.

وزاد دامت دمشق حيوية، وارتفع شأنها خاصة وأن معاوية منذ أيامه الأولى، أولى اهتماماً خاصاً بجني الأموال، والمحافظة عليه، معتمداً على وفرة الجند، وكثرة المال

لضمان مسار الحكم، وقوته، وغدا العطاء، وما يتبعه من هدايا، وهات من وسائل السيطرة، وضمان الولاء، والتأييد لسلطانه بعد فيض من الأموال، ازداد تدفقه على دمشق، ولم يعرف له سابقاً، أو مثيل.

وهكذا استطاع ضمان قبائل بلاد الشام بما أغدقه عليهم من خير دائم وهبات، وعطايا، لا تعوض، ولهذا اقترنت صورة الشاميين في النفوس بمبدأ الطاعة، فأصبحت هذه الصفة هي الخاصة التي تميزهم عن أهل الأمصار الأخرى، وهي الراية التي يجتمعون حولها منذ البداية، حتى أصبحت طاعة أهل الشام مضرب المثل "٩٨"، فهم عندما كتب إليهم عثمان في القراءة قالوا سمعنا، وأطعنا، وما اختلف في ذلك اثنان، ولم تحرفهم عن تلك الطاعة قيد أنملة ثورة أبي ذر، أو نقداً عبادة بن الصامت، أو تحريضات ابن السوداء، وعندما عرفوا بمقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، كانوا في طلبهم بدمه، كأنهم رجل واحد، وعندما ندبهم معاوية إلى صفين لم يجد لديهم تلكواً.

هذا وإن معاوية بحلمه ودهائه وسعة أفقه، والسياسة التي اتبعها في التوازن بين القيسية واليمانية، وزواجه من قبيلة كلب جعل حكمه يتصف بالهدوء، والازدهار الاقتصادي، والعمراني، والثقافي، والتمازج الاجتماعي.

من كل ما تقدم تبين أن العرب المسلمين بعد تأسيس دولة المدينة، وتوحيد الجزيرة العربية عقب القضاء على حركات الردة، تمكنوا في مدة زمنية قصيرة من القضاء نهائياً على الإمبراطورية البيزنطية في بلاد الشام، وبالتالي أسسوا دولة إسلامية شاسعة، كان للخليفة عمر بن الخطاب دور كبير في وضع، وتنظيماتها الأولى لكن توقف العمليات الانتشارية في أواخر عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه كان له انعكاسات على الدولة، والمجتمع الإسلاميين.

وبعد ارتقاء معاوية للحكم، وتأسيس الدولة الأموية تواصل الانتشار من جديد في اتجاهات أخرى لاسيما في الشرق حيث تمكن العرب المسلمون من غزو السند،

وفتحه، كما قاموا بمحاصرة القسطنطينية، ووصلوا إلى أقصى الغرب، وفتحوا الأندلس، وبفضل عمليات الانتشار هذه لعب العرب دوراً هاماً على المستوى العالمي، وسوف يقومون بإنشاء عدة مراكز للثقافة العربية والإسلامية وستصبح المنطقة العربية مركز إشعاع عالمي.

## الحواشي

- ١-الشهابي: أبواب ص ١٣٠، بهنسي: الشام والحضارة ص ١٠٤-١٠٥.
  - ٢-ابن جبير: الرحلة ص ٢٧١.
  - ٣-العمرى: مسالك ص ١٨٦، المقرئى: السلوك ج ١ ص ٢٣٠.
  - ٤-ابن شداد: الأعلام الخطيرة ص ٥٠.
  - ٥-عباس: تاريخ بلاد الشام ص ١٦٥ - ١٦٦.
  - ٦-خماش: الشام في صدر الإسلام ص ١٢٢، البلاذرى: فتوح ص ١١٦، الطبرى: تاريخ ج ٣ ص ٣٨٧.
  - ٧-خماش: الشام في صدر الإسلام ص ١٢٢.
  - ٨-نولدكة: أمراء غسان ص ٩٨، عباس: تاريخ ص ١٦٨، كرد علي: خطط ج ١ ص ١٠٥، علي: تاريخ العرب ج ٤ ص ٢٤٣.
  - ٩-كرد علي: خطط الشام ج ١ ص ٧١، ابن حبيش: غزوات ج ١ ص ٢٠٨.
  - ١٠-ابن حبيش: غزوات ج ١ ص ٢٠٨.
  - ١١-ابن حبيش: المصدر نفسه ج ١ ص ٢٠٨.
  - ١٢-ابن هشام: السيرة ج ٢ ص ٨٢٨-٨٣٥.
  - ١٣-ابن هشام: المصدر نفسه ج ٢ ص ٨٢٨-٨٣٥.
  - ١٤-ابن سعد: الطبقات ج ٢ ص ١٢٨.
- philodelphia 1982, pp 36-37. 'The chronicle of theophanes
- ١٥-الطبرى: تاريخ ج ٢ ص ٨٩.
  - ١٦-ابن سعد: الطبقات ج ٢ ص ١٦٥، ابن هشام: السيرة ج ٢ ص ٩٤٥-٩٥٣.
  - ١٧-ابن هشام: السيرة ج ٢ ص ٩٥٤.

- ١٨- الواقدي: المغازي ج ٣ ص ١١٢٠، ابن سيد الناس: عيون الأثر ج ١ ص ٣٥٦،  
ابن هشام: السيرة ج ٤ ص ٢٩١.
- ١٩- الواقدي: مغازي ج ١ ص ٢
- ٢٠- البلاذري: فتوح ص ١١٤.
- ٢١- الواقدي: مغازي ج ١ ص ٣
- ٢٢- ابن هشام: السيرة ج ٢ ص ١٠٢٦-١٠٥٦، ابن سعد: الطبقات ج ٢  
ص ١٨٩-١٩٢.
- ٢٣- شجاع: الدولة العربية الإسلامية ص ٣٤٩.
- ٢٤- ابن حبيش: غزوات ١/١٤٨-١٤٩.
- ٢٥- ابن حبيش: غزوات ج ١ ص ١٤٨-١٤٩.
- ٢٦- ابن حبيش: المصدر نفسه ج ١ ص ١٤٩-١٥٨.
- ٢٧- البلاذري: فتوح ص ١١٤، ابن الأثير: ج ٢ ص ١٥٥.
- ٢٨- البلاذري: فتوح ص ١١٥-١١٦، ابن حبيش: غزوات ج ١ ص ١٦٠-١٧١.
- ٢٩- البلاذري: فتوح ص ١١٥-١١٦-١٢٠.
- ٣٠- ابن حبيش: غزوات ج ١ ص ١٦٩.
- ٣١- المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٩-١٧٠-١٨٠، ابن العديم: البغية ٣١٢٠-٣١٧٢-
- ٣٥٦٣-٣٥٦٤، ابن البطريق: تاريخ ص ١٠.
- ٣٢- الواقدي: فتوح الشام ١/٢٦، الأزدي: فتوح الشام ٦٩، البلاذري: فتوح  
البلدان ١٣٥
- ٣٢ مكرر- هناك خلاف في تقديم فتح دمشق على أجنادين، أو العكس بين المؤرخين

- ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ١ ص ١٤٥، كمال: الطريق إلى دمشق ص ٢٣٣،  
البلاذري: فتوح ص ١٢٠، الطبري: تاريخ ج ٣ ص ٤١٥-٤١٨، ابن حبيش:  
غزوات ج ١ ص ٢١٨-٢١٩.  
٣٣- سورة النجم: الآية ٣٩-٤٢.  
٣٤- ابن حبيش: غزوات ج ١ ص ١٩٨٠، ابن عساكر: تاريخ ج ١ ص ١٤٤.  
٣٥- ابن حبيش: غزوات ج ١ ص ١٩٥-١٩٦-١٩٧، ابن البطريق: التاريخ  
ص ١٣.  
٣٦- الأزدي: فتوح ص ٩٤-٩٥، البلاذري: فتوح ص ١٢٠-١٢٢، خليفة ابن  
خياط: تاريخ ج ١ ص ١٠٤.  
٣٧- الأزدي: فتوح ص ١١٠-١١١، ابن حبيش: غزوات ج ١ ص ٢١٨٠، ابن  
عساكر: تاريخ دمشق ج ١ ص ١٤٤-١٤٥.  
٣٨- Butler: 'The Arab conquest of Egypt', the last thirty years of the Roman Domibion. p 152  
Haddad, George: Article: The Fall of Damascus in th -39 Hands of The  
Saracens, Beirut, March 30, 1928. p 3  
٤٠- الطبري: تاريخ ج ٣ ص ٢٦١-٤٣٤، الأزدي: فتوح ص ٩٤. البلاذري: فتوح  
ص ١٢١، اليعقوبي: تاريخ ج ٢ ص ١٤٠، الواقي: المغازي ج ١ ص ٦١.  
٤١- البلاذري: فتوح ص ١٢٧، الواقي: المغازي ج ١ ص ٦١، الطبري: تاريخ  
ج ٣ ص ٤٣٨، كرد علي: الخطط ج ١ ص ٩١.  
٤٢- كرد علي: الخطط ج ١ ص ٨٥.  
٤٣- الأزدي: فتوح ص ١٠٤-١٠٦، ابن حبيش: غزوات ج ١ ص ٢٠٨-٢١٠.  
٤٤- البلاذري: فتوح ١٢٨.  
٤٥- ابن كثير: البداية والنهاية ج ٧ ص ٢٠.  
٤٦- البلاذري: فتوح ص ١٢٨.

- ٤٧- الطبري: تاريخ ج ٣ ص ٤٣٩، البلاذري: فتوح ص ١٢٨.
- ٤٨- الأزدي: فتوح ص ١٠٤-١٠٦، البلاذري: فتوح ص ١٢٧-١٣٦، الطبري: تاريخ ج ٣ ص ٤٣٨-٤٤٠، ابن حبيش: غزوات ج ١ ص ٢٠٨-٢١٧، ابن عساكر: تاريخ ج ١ ص ٤٨١-٥٢٤، ابن البطريق: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ١٦.
- ٤٩- البلاذري: فتوح ص ١٥٨.
- ٥٠- حسن: تاريخ الإسلام ج ١ ص ٥٢٥.
- ٥١- البلاذري: فتوح ص ١٣٣.
- ٥٢- الطبري: تاريخ ٣/٤٤٠.
- ٥٣- ابن البطريق: التاريخ ص ١٤.
- ٥٤- البلاذري: فتوح ص ١٢٩.
- ٥٥- الأزدي: فتوح ص ١٨٠-٢٣٢-٢٣٧، الأزدي: فتوح ص ١٥٠-١٥١-١٥٨، ابن حبيش: غزوات ج ١ ص ٢٣٤-٣٠٢-٣٢٥، ابن العديم: البغية ج ١ ص ٥٨٧-٥٨١.
- ٥٦- الأزدي: فتوح ص ٢٢٥-٢٢٧-٢٣٧-٢٤٣-٢٨٥، الطبري: تاريخ ج ٣ ص ٦٠٢-٦٠٣، ابن حبيش: غزوات ج ١ ص ١٨٨.
- ٥٧- الطبري: تاريخ ج ٣ ص ٦٠٢-٦٠٣، عباس: تاريخ بلاد الشام ص ٢٥٩.
- ٥٨- الطبري: المصدر نفسه ج ٣ ص ٦٠٢ وما بعد.
- ٥٩- الطبري: المصدر نفسه ج ٣ ص ٦٠٣.
- ٦٠- الأزدي: فتوح ص ٢٧٦-٢٨٣، البلاذري: فتوح ص ١٤٦، ابن حبيش: غزوات ج ١ ص ٣١٤-٣٢٨.

- ٦١- الأزدى: فتوح ص ٢٧٦-٢٨٣، البلاذري: فتوح ص ١٤٦، ابن حبش:  
غزوات ج ١ ص ٣١٤-٣٢٨.
- ٦٢- البلاذري: فتوح ص ١٢٧.
- ٦٣- العلي: امتداد العرب ص ٦١.
- ٦٤- كرد علي: الإسلام والحضارة العربية ج ١ ص ١٧٢.
- ٦٥- كرد علي: المرجع نفسه ج ١ ص ١٧٢.
- ٦٦- فلهاوزن: تاريخ الدولة العربية ص ١٢٧.
- ٦٧- الدوري: مقدمة ص ٧٩.
- ٦٨- ارنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٦٩-٧٠.
- ٧٠- عبد اللطيف: تاريخ الإسلام ص ٤٨٥.
- ٧١- الطبري: تاريخ ج ٣ ص ٦٠٢-٦٠٤.
- ٧٢- عبد اللطيف: تاريخ الإسلام ص ٥٠٨.
- ٧٣- عبد اللطيف: المرجع نفسه ص ٥٠٩-٥١٠.
- ٧٤- عبد اللطيف: المرجع نفسه ص ٥١٣-٥١٤.
- ٧٥- عبد اللطيف: المرجع نفسه ص ٥١٤.
- ٧٦- حسن: تاريخ الإسلام ص ٤٣٧، قدورة: تطور تاريخ العرب ص ٢١٨.
- ٧٧- ابن هلال العسكري: الأوائل ص ٢٠٠-٢٠١، ابن طباطبا: تاريخ الدول  
الإسلامية ص ١٠٦، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٠٠-٢٠١، الجاحظ: التاج  
ص ٣١-٣٥-٣٩.
- ٧٨- ابن قتيبة: المعارف ص ٢٤١، خماش: الشام في صدر الإسلام ص ٢٢٥  
القلقشندي: صبح الأعشى ج ١ ص ٣١٧.
- ٧٩- قدورة: تطور تاريخ العرب ص ٢١٩.
- ٨٠- ابن عساكر: تاريخ ج ١ ص ٢٤٣.



- ٨١- H. Lammens. LaRe Publique Marchande De La Mecque Vers La naboo De Notreere. p 31
- ٨٢- قدوره: تطور تاريخ العرب ص ٢١٩.
- ٨٣- أبو زرعة: تاريخ ص ١٦٤٩، الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ١ ص ٤٥٨-٤٥٩.
- ٨٤- ابن عساكر: تاريخ ج ١ ص ٣١٥، ابن عساكر: تهذيب ج ١ ص ٧٠.
- ٨٥- ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ٤٧.
- ٨٦- أبو زرعة: تاريخ ص ٣٤٦.
- ٨٧- الذهبي: تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٢١٦.
- ٨٨- شمس الدين: أثر الحدث السياسي ص ٣٧٥.
- ٨٩- ابن عساكر: تاريخ ج ١ ص ٢٢٠.
- ٩٠- بروكلمان: تاريخ الشعوب ج ١ ص ١٧٠.
- ٩١- الطبري: تاريخ ج ٥ ص ٥٣٣.
- ٩٢- البلاذري: فتوح ص ١٣١.
- ٩٣- العش: النقود العربية الإسلامية، ص ١٣٩-١٤٠.
- ٩٤- خماش: الشام في صدر الإسلام ص ٣١٨.
- ٩٥- خماش: المرجع نفسه ص ١٠١ وما بعد.
- ٩٦- هذه الرحلة التي ذكرت في القرآن الكريم.
- ٩٧- اليعقوبي: تاريخ ج ٢ ص ٢٣٤.
- ٩٨- R. Simon, Humset I laf. ou Commerec Sans Guerre. Csur La Gene Seetle - Cara Ctoredu Commerce Ca Mecque, Acte Orientalia Aee ademmm Scientia Cum, Hungarica 1970 Tommusx.p 205-232
- ٩٨- ابن عساكر: تاريخ ج ١ ص ٣٠٤، كرد علي: خطط ج ٥ ص ١٢.

## المصادر

- ١- أرنولد: (توماس)، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم، النهضة المصرية ١٩٧٠م.
- ٢- الأزدي: (أبو زكريا يزيد بن محمد بن أياس بن القاسم ت ٣٣٤هـ / ٩٤٥م) فتوح الشام، القاهرة ١٩٧٠م.
- ٣- بروكلمان: (كارل)، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة أمين فارس، ومنير بعلبكي، بيروت، ط ٨، ١٩٧٨.
- ٤- ابن البطريق: (افتيشوس المكنى بسعيد بن البطريق)، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٩م.
- ٥- البلاذري: (أبو الحسن ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م)، فتوح البلدان، تحقيق وتعليق، رضوان محمد رضوان، بيروت، دار الكتب العلمية ١٩٧٨م.
- ٦- بهنسي: (عفيف)، الشام والحضارة، دمشق، ١٩٨٦م.
- ٧- الجاحظ: (أبو عثمان عمرو بن بحر ت ٢٢٥هـ / ٨٦٩م)، التاج في أخلاق الملوك، تحقيق فوزي عطوي، بيروت، الشركة اللبنانية للكتاب.
- ٨- ابن جبير: (محمد بن أحمد ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م)، الرحلة، تحقيق حسين نصار، القاهرة، ١٩٥٥م.
- ٩- ابن حبيش: (عبد الرحمن محمد بن عبد الله ت ٥٨٤هـ / ١١٨٨م)، غزوات، تحقيق د. سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ط ١، ١٩٩٢.
- ١٠- حسن: (حسن إبراهيم)، تاريخ الإسلام، القاهرة، مكتبة النهضة العربية.
- ١١- خمّاش: (نجدة)، الشام في صدر الإسلام، دمشق، دار طلاس.
- ١٢- ابن خياط: (أبو عمرو خليفة ت ٢٤٠هـ / ٨٥٤م)، تاريخ خليفة، تحقيق د. سهيل زكار، دمشق ١٩٦٧م.

- ١٣- الدوري: ( عبد العزيز )، تاريخ صدر الإسلام، بغداد ١٩٦١م.
- ١٤- الذهبي: ( شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ت ٦٤٨هـ / ١٣٧٤م )، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة ط ١، ١٩٨١م.
- ١٥- أبو زرعة: ( عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان ت ٢٨١هـ / ٨٩٤م )، تاريخ أبو زرعة، تحقيق، شكر الله بن نعمة الله الفرجاني، دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية.
- ١٦- زكار: ( سهيل )، القدس في التاريخ من الفتح العمري الإسلامي حتى الإحتلال الصليبي، منشورات القيادة الشعبية الإسلامية العالمية، ط ١، ٢٠٠٢م.
- ١٧- ابن سعد: ( محمد ت ٢٣٠هـ / ٨٤٤م )، الطبقات الكبرى، لين ١٣٢٢هـ.
- ١٨- ابن سيد الناس: ( فتح الدين أبو الفرج محمد بن محمد ت ٧٣٤هـ / ١٣٣٣م )، عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير، تحقيق لجنة التراث العربي، بيروت، دار الآفاق ط ٢، ١٩٨٠م.
- ١٨- السيوطي: ( عبد الرحمن بن أبي بكر ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م )، تاريخ الخلفاء، تحقيق لجنة من الأدباء، بيروت، دار الثقافة.
- ١٩- شجاع: ( عبد الرحمن )، دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، صنعاء، دار الفكر المعاصر ط ١، ١٩٩٩م.
- ٢٠- ابن شداد: ( عز الدين أبي عبد الله بن علي بن إبراهيم الحلبي ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م )، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج ١ ق ١، تحقيق دومينيك سورديل، دمشق ١٩٥٣م.
- ٢١- شمس الدين: ( محمد علي )، الحدث التاريخي في عصر بني أمية ٤١-١٣٢هـ / ٦٦١-٧٥٠م رسالة دكتوراه بإشراف د. إبراهيم بيضون، بيروت
- ٢٢- الشهابي: ( قتيبة )، أبواب دمشق وأحداثها التاريخية، دمشق، وزارة الثقافة ١٩٩٦م.

- ٢٣- ابن طباطبا: (محمد بن علي المعروف بابن الطقطقي)، تاريخ الدول الإسلامية، دون تاريخ، ودون مكان طباعة.
- ٢٤- الطبري: (أبو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف ط ٢.
- ٢٥- عباس: (إحسان)، تاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٩٠م.
- ٢٦- عبد اللطيف: (عبد الشافي)، تاريخ الإسلام في عصر النبوة والخلافة الراشدة، القاهرة.
- ٢٧- ابن العديم: (كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله ت ٦٦٠هـ / ١٢٦١م)، بغية الطلب، تحقيق د، سهيل زكار، ورياض زركلي بيروت، دار الفكر.
- ٢٨- ابن عساكر: (القاسم بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي ت ٥٧١هـ / ١١٧٥م)، تاريخ دمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد.
- ٢٩- ..... تهذيب، ابن بدران، مطبعة روضة الشام، دمشق، ١٣٣١هـ.
- ٣٠- العش: (محمد أبو الفرج)، النقود العربية الإسلامية، المؤتمر الدولي لبلاد الشام، الجامعة الأردنية ١٩٧٤م.
- ٣١- علي: (جواد)، تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٥٤م.
- ٣٢- العلي: (صالح)، امتداد العرب في صدر الإسلام، بغداد ١٩٨١م.
- ٣٣- العمري: (شهاب الدين أحمد بن يحيى، ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مصر، مطبعة الدار.
- ٣٤- فلهاوزن: (بوليوس)، تاريخ الدولة العربية، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، لجنة التأليف والنشر والترجمة ١٩٥٨م.

- ٣٥- ابن قتيبة: (أبو محمد عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦هـ / ٨٩٠م)، المعارف، تحقيق محمد اسماعيل عبد الله الصاوي، بيروت ١٩٧٠م.
- ٣٦- قدورة الشامي: (فاطمة)، تطور تاريخ العرب، بيروت.
- ٣٧- القرآن الكريم.
- ٣٨- القلقشندي: (أحمد بن عبد الله ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الانشاء، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩١٣م.
- ٣٩- ابن كثير: (أبو الفدا اسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي ت ٧٧٤هـ / ١٣٧١م)، البداية والنهاية، بيروت، مكتبة المعارف.
- ٤٠- كرد علي: (محمد)، خطط الشام، دمشق، مكتبة النوري ١٩٨٣م.
- ٤١-.....الإسلام والحضارة العربية، مطبوعات المجمع العلمي بدمشق، ط ٢.
- ٤٢- كمال: (أحمد عادل)، الطريق إلى دمشق، فتح بلاد الشام، بيروت، دار النفائس، ط ٢، ١٩٨٢م.
- ٤٣- نولدكه: (ثيودور)، أمراء غسان من آل جفنة، ترجمة بندلي جوزي، وقسطنطين زريق، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٣٣م.
- ٤٤- ابن هشام: (أبو محمد عبد الملك بن هشام ت ٢١٣هـ / ٨٢٨م)، السيرة النبوية، بيروت، دار الجيل ١٨٧٥م.
- ٤٥- ابن هلال العسكري: (حسن بن عبد الله م بعد ٣٩٥هـ / ١٠٠٥م) الأوائل
- ٤٦- الواقدي: (أبو عبد الله محمد بن عمر ت ٢٠٧هـ / ٨٢٣م)، فتوح الشام، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- ٤٧- اليعقوبي: (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م)، تاريخ، بيروت، دار صادر ١٩٦٠م.

### المراجع الأجنبية:

- 1- Butler, A. J.: The Arab conquest of Egypt, the last thirty years of the Roman Domibion.
  - 2- Haddad, George: Article: The Fall of Damascus in th -33 Hands of The Saracens, Beirut, March 30, 1928.
  - 3- H. Lammens. LaRe Publique Marchande De La Mecque Vers La naboo De Notreere.
- The chronicle of theofhanes, philodelphia 198-4
- 5-R. Simon, Humset I laf. ou Conmeree Sans Guerre, Csur La Gene Seetle Cara Ctoredu Commerce Ca Mecque, Acte Orientalia Aee ademm Scientia Cum, Hungarica 1970 Tommusx.